علم المناسبة (٢)

آيات الحجّ نموذجاً

محسن الأسدي.[١]

ملخّص البحث :

مـازال كلامنـا حـول مصطلـح (علـم المناسـبة) في آيـات قرآنيّـة مباركـة، واخترنـا بعـض آيات الحـجِّ أمثلـةً لهـا، ونذكـر بعضها الآخـر في مقالتنا الثانية هـذه، ولكن بعد أن نذكـر أنَّ لهذا العلم أهميّـةً كبـيرةً في عـالم معرفـة الكتـاب المبـين، تظهـر واضحةً عنـد مَـن أولى علوم التنزيـل العزيز، ومنهـا علـم المناسـبة مـن علـماء ومفكريـن وكتّـاب عنايـةً فائقـةً ، وسُـجّلَت لـه جهـود قيّمة في بيـان المناسـبات القرآنيـة وأنواعهـا: المناسـبة بـين الآيـات... والمناسـبة بين السـور... والمناسـبة بين الآيـات والسـور... وفي الهـدف الـذي راحوا ينشـدونه من وراء اكتشـافهم معالم الارتبـاط فيما بين الآيـات والسـور المباركـة..؛ وهو معرفـة المقاصد الجليلـة، والقواعد وا لأحـكام الإعجازية الدقيقة، والوحـدة الموضوعيّـة في السـياقات القرآنيّـة، والتوصل إلى نظم التنزيل العزيـز وصور من إعجازه وأسراره وحكمها...

* * *

١. محقق و باحث ديني .

ولكـن لا بـدَّ مـن الإشـارة إلى أنَّ هـذا العلـم بأهدافـه هـذه وغيرهـا التـي يذكرونها، كـما لـه مؤيـدون، وطائفة اعتدلـت في موقفها منـه، ولها تفصيل فيـه، وقـف إزاءه آخرون معارضـون، وكان بينهـم من عارضه بشـدّة كالشـوكاني في تفسـيره فتـح القدير، ووصف مـا ذكـروه بأنه «..محـض الرأي المنهي عنـه... وتكلّفـات وتعسّـفات..»، في كلام طويل، هـذا شيء منه:

«إعلـم أنَّ كثـيراً مـن المفسريـن جـاءوا بعلـم متكلّـف، وخاضـوا في بحـر لم يكلفـوا سـباحته، واسـتغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهـم بفائدة، بل أوقعوا أنفسـهم في التكلم بمحـض الـرأي المنهي عنـه في الأمور المتعلّقـة بكتاب الله سـبحانه، وذلك أنّهـم أرادوا أن يذكـروا المناسـبة بين الآيـات القرآنية المسرودة على هـذا الترتيب الموجـود في المصاحف، فجـاءوا بتكلّفـات وتعسّـفات يتبرّأ منهـا الإنصاف، ويتنـزّه عنها كلام البلغـاء فضلاً عن كلام الـربّ سـبحانه، حتى أفردوا ذلـك بالتصنيف، وجعلوه المقصد الأهـم من التأليف، كـما فعلـه البقاعي في تفسـيره ومن تقدّمـه،...».[1]

١. هـذا الإيجـاز في مصـادره العديـدة التـي منهـا: التفسـير الكبـير، الفخـر الـرازي (ت ٦٠٦ هجريـة)؛ البرهـان في تناسـب سـور القـرآن، لأبي جعفـر بـن الزبـير الغرناطـي (ت ٧٠٨ هــ) تحقيـق: محمـد شـعباني، وزارة الأوقـاف والشـؤون الإسـلامية ـ المغـرب ؛ نظـم الدرر في تناسـب الآيات والسـور، برهـان الديـن البقاعـي (ت ٨٨٥ هـ) ؛ تناسـق الدرر في تناسـب السـور، مراصد المطالع في تناسـب المقاطـع والمطالـع، جلال الديـن السـيوطي (ت ٨٨٥ هـ) ؛ تفسـير المنار، الشـيخ محمد عبده؛ تفسـير التحريـر والتنويـر، ابن عاشـور (ت١٣٩٣هــ) ؛ جواهـر البيـان في تناسـب سـور القـرآن، للشـيخ الغـماري (ت١٤١٣هــ) ؛ النبـأ العظيـم؛ نظـرات جديـدة في القـرآن، للدكتـور محمد عبـد الله دراز، دارطيبـة للنـشر والتوزيـع،: ١٥٤ ؛ مباحـث في التفسـير الموضوعـي، للدكتور مصطفى مسـلم، دار القلـم، دمشـق، ط٢٠٠٠م ؛ علـم المناسـبات والتفسـير الموضوعـي: ٥٥ ـ ٩٠ ؛ تفسـير فتـح القدير، الشـوكاني (ت١٢٥٠هــ)، في بدايـة تفسـيره للآيـة ٤٠ ـ ٤٢ مـن سـورة البقرة.

أما الآيات فهي كالآتي :

ثالثاً : سورة آل عمران : ٩٦ ـ ٩٧ .

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾.

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَللَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ﴾.

يبدو أنَّ هذه الآية احتلّت المرتبة الأولى في الدلالة على الوجوب الشرعي لهذه الفريضة المشروط بالاستطاعة؛ وتأتي بعدها الآية الثانية (الحج: ٢٧) لتدل هي الأخرى على وجوب الحج أيضاً، وهناك آيات أخرى في أفعاله وأنواعه وشيء من أحكامه، وإن لم أستقرئ هذا كاملاً في أقوال جميع المفسرين، ولكن هذا ما تيسر لي من كلامهم وهو أنّ وجوب فريضة الحج تحقق بها أولاً.

فهذه الآية، وإن دلّت على ذلك، فقد ذكرت تبعاً للآية التي سبقتها، ولها ارتباط وعلاقة بها؛ لما للبيت من أهمية وفضائل وآيات، ولعلّ من ذلك وجوب فريضة الحج ومناسك العمرة التي يجرى أغلبها داخل البيت الحرام... وقد جاء وجوب هذه الفريضة في هذه الآية ـ تأكيداً لحقِّها وتعظيماً لحُرْمتها ـ بأبلغ ألفاظ الوجوب، فاللام في قوله «ولله» هي لام الإيجاب والإلزام، وقد أُكّدت بالحرف (عَلَى) التي هي من أوكد ألفاظ الوجوب عند العرب؛ فإذا قال العربي: لفلان عليّ كذا؛ فقد وكّده وأوجبه. وفي قول آخر: في هذه الآية من صيَغ الوجوب صِيغتان: لام الاستحقاق، وحرف على الدال على تقرّر حقّ في ذمة المجرور بها.

وأمّا عن وقت نزولها، فهو وقت إيجاب الحجِّ، وكان في المدينة بعد الهجرة النبوية الشريفة، إلّا أنّ أقوالهم اختلفت في تاريخه، وبالتالي فإنَّ ما وقع قبل نزولها من حجٍّ للنبيّ ﷺ ولغيره من المسلمين بمكة كان تقرّباً إلى الله تعالى، واستصحاباً للحنيفية... وقد ذكر أنّه حجَّ ﷺ مرتين قبل هجرته للمدينة المنورة، ووقف مع الناس...

وأمّـا في سـبب نزولها، فقـد ورد عن مجاهد أنّـه قال: تفاخر المسـلمون واليهود، فقالت اليهـود: بيـت المقدس أفضـل وأعظم من الكعبة؛ لأنّـه مهاجر الأَنبياء والأَرض المقدّسـة، وقال المسـلمون: بل الكعبة أفضـل؛ فأنزل الله تعـالى: ﴿إِنَّ أَولَ بيتٍ ...﴾.

أخـرج ابـن المنـذر وغيره عن ابـن جريج قـال: بلغنـا أنَّ اليهـود قالت: بيـت المقدس أعظـم مـن الكعبة؛ لأنّـه مهاجر الأنبيـاء، ولأنّه في الأرض المقدّسـة، فقال المسـلمون: بل الكعبـة أعظـم، فبلغ ذلك رسـول الله ﷺ فنزلـت الآية.

فالآيـة إذن؛ نزلـت لـتردّ على زعـم جديـد لبني إسرائيـل، يريـدون بذلك أن يزيلـوا عـن شـعيرة الحـج مـا يستطيعون من قدسية، ويربطوها بمجرد أفعال اعتادتها العرب لا تمـتُّ إلى الوحـي بصلـة، فبيّنـت فـي ثناياهـا أنّ الله هـو الذي فـرض على النـاس حجّ البيـت من اسـتطاع إليه سـبيلاً.

وهكـذا نجـد أنّ الحديـث عن الحـجّ في هـذا النصّ قد جـاء في معـرض محاججة أهل الكتـاب في شـركهم وكفرهـم، والـردّ عـلى اليهـود في بعـض مزاعمهـم عـلى أنبيائهـم، وشـبهتهم التي يريـدون منهـا رفـع القدسـيّة عن شـعيرة الحجّ، فجاء النصُّ؛ ليثبت أنَّ البيـت الـذي في مكة بيـت بركة وهدايـة لعبادة الله عـلى: ﴿مِلَّـةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفـاً وَمَا كَانَ مِـنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

قـال ابـن عاشـور: «فأمَّا إيجـاب الحـجّ في الشريعة الإسـلاميَّة، فـلا دليل عـلى وقوعه إلّا هـذه الآيـة، وقـد تمـالأ علـماء الإسـلام عـلى الاسـتدلال بهـا على وجـوب الحـجّ، فلا يعـد مـا وقـع من الحـجّ قبل نزولهـا، وبعـد البعثـة إلّا تحنّثـاً وتقرّباً، وقـد صحّ أنَّهـا نزلت سـنة ثـلاث مـن الهجرة، عقب غـزوة أحد، فيكـون الحجّ فـرض يومئذ». وذكـر القرطبي الاختـلاف في وقـت فرضيـة الحجّ على ثلاثة أقوال؛ فقيل: سـنة خمس، وقيل: سـنة سـبع، وقيـل: سـنة تسـع، ولم يعزُ الأقـوال إلى أصحابها، سـوى أنَّه ذكـر عن ابن هشـام، عن أبي عبيـد الواقـدي أنَّـه فـرض عـام الخنـدق بعـد انـصراف الأحـزاب، وكان انصرافهم آخر

سـنة خمس.

قـال ابـن إسـحاق: وولى تلـك الحجَّـة المشركـون. وفي مقدّمـات ابن رشـد ما يقتضي أنّ الشـافعي يقـول: إنّ الحـجّ وجب سـنة تسـع، وأظهر من هـذه الأقوال قـول رابع تمالأ عليـه الفقهـاء، وهـو أنّ دليـل وجوب الحـجّ قولـه تعـالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِـجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْـتَطَاعَ إِلَيْهِ سَـبِيلاً...﴾.

وقد اسـتدلّ الشَّـافعي بها عـلى أنّ وجوبه عـلى التَّراخي، فيكون وجوبه على المسـلمين قـد تقرَّر سـنة ثـلاث، وأصبح المسـلمون منذ يومئـذٍ مُحْصَرين عـن أداء هـذه الفريضة إلى أن فتـح الله مكّة ووقعت حجّة سـنة تسـع.[1]

المناسبة:

التنزيـل العزيـز ذكـر هاتـين الآيتـين المباركتـين ضمن مقطـع قـرآني يتوفّر عـلى آيات تحمـل ردوداً عـلى أهـل الكتـاب وعـلى بنـي إسرائيل، وحتـى نوجـز الـكلام ولا نذهب بعيـداً في متابعـة هـذه الآيـات السـابقة واللاحقـة للآيتـين نشـير إلى تفاخـر وقـع بـين المسـلمين واليهود، فكان سـبباً لنـزول الآية ٩٦ من سـورة آل عمران، قـال مجاهد: تفاخر المسـلمون واليهود، فقالـت اليهود: بيت المقـدس أفضل وأعظم من الكعبـة؛ لأنّه مهاجر الأَنبيـاء والأَرض المقدسّـة، وقال المسـلمون: بل الكعبة أفضل، فأنزل الله تعـالى: ﴿إِنَّ أَولَ بيتٍ...﴾.

وعـن ابـن جريج قـال: بلغنـا أنَّ اليهود قالـت: بيت المقـدس أعظم من الكعبـة؛ لأنّه مهاجـر الأنبيـاء، ولأنّـه في الأَرض المقدسّـة، فقـال المسـلمون: بـل الكعبـة أعظـم، فبلغ ذلـك رسـول الله ﷺ فنزلـت الآية.

معنـى هـذا أنَّهـا ردٌّ لقـول اليهـود، وقـد أُلحـقَ هذا الـردُّ بالآيـة التاليـة لهـا ٩٧: ﴿فِيهِ

١. أسباب النزول، للواحدي؛ مجمع البيان، للطبرسي؛ التحرير والتنوير، ابن عاشور: الآية.

آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ﴾.

حيث جاءت ردًّا أيضاً إذا ما أخذنا بما روي في سبب نزول الجزء الأخير منها: ﴿...وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ﴾. من أنّه: لما نزلت ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا﴾.[1]

قالت اليهود: فنحن مسلمون، فقال لهم النبيُّ صلى الله عليه وآله: «إنَّ الله فرض على المسلمين حجَّ البيت». فقالوا: لم يُكتب علينا، فأنزل الله ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ﴾. وفي خبر لـمّا نزلت: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلإِسْلَـٰمِ دِينًا...﴾. فقالت الملل: نحن المسلمون، فأنزل الله عزّوجلّ: ﴿وللَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَن اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَن الْعَالَمِينَ﴾. فحجّ المسلمون، وقعد الكفار.

فهذا الردُّ جاء تعزيزاً وتفضيلاً لمكانة البيت الحرام بما فيه من آيات بيّنات، وهي فضائل ومقامات تميّز بها وحده، وليس لبيت المقدس منها شيء، وتوكيداً لدوره الكبير الخالد عبّر ما فرضه الله تعالى من حجّه وأداء مناسك العبادة فيه...

وهاهنا نشير إلى ما ذكره في وجه اتصال الآية بما قبلها كلّ من:

الشيخ الطبرسي قال: وجه اتصال الآية بما قبلها أنَّ الله تعالى أمر أهل الكتاب باتباع ملّة إبراهيم، ومن ملّته تعظيم بيت الله الحرام، فذكر تعالى البيت وفضله وحرمته وما يتعلّق به في قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاس...﴾

يشير الشيخ بكلامه هذا إلى الآية ﴿قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

---

١. سورة آل عمران: ٨٥.

مـن هـذا يظهـر أنَّ المناسـبة تتحقـق باتبـاع ملّـة إبراهيـم عليه السلام، ومـن ملّتـه هـو البيـت الحـرام، فهـو مـن رفع قواعـده مع ولده إسـماعيل، والـذي يعدُّ بنـاؤه أكـبر حادثة وقعت في تاريـخ خليـل الله تعالى، فهـو البيت الأول لا غـيره، كـما في الآيـة: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّـاس لَـلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَـارَكاً وَهُـدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾.

وهـو ذو الآيـات البيّنـات، اختـصَّ بهـا دون غـيره، ولا يمكـن إنكارهـا، والتـي منها كونـه مقامـاً آمناً، وقاعـدةً لدعوته ولمن تبعـه من ذرّيته والمؤمنـين به ﴿فِيهِ ءَايـاتٌ بَيِّناتٌ مَّقَـامُ إِبْرَاهِيـمَ وَمَن دَخَلَـهُ كَانَ آمِنـاً...﴾، وكونه محجوجاً، يُقصد مـن كلِّ مكان، حيث كان مـن شريعتـه تعظيم هـذا البيت ذي الآيـات والمقام الكريم، ففرضت السـماء حجَّه في الآيتـين: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْـتَطَاعَ إِلَيْهِ سَـبِيلاً وَمَـن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللهَ غَـنِىٌّ عَـنِ الْعَالَمِـينَ﴾ . ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّـاس بالْحَجِّ يَأْتُـوكَ رجَـالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِـن كُلِّ فَـجٍّ عَميـق﴾. إنَّهـا فضائـل لا تتوفـر في غيره، وهـي تكفي لدحـض حجج أهل الكتـاب وتبديـد مزاعمهم وشـبهاتهم حول هـذا البيت المبارك والمسـجد الحـرام والكعبة الشريفـة، وقـد أضفت عليها السـماء ميزةً كبرى حين ﴿جَعَـلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْـتَ الْحَرَامَ قِياماً لِّلنَّـاس ...﴾. المائدة : ٩٧.

أبـو حيـان حيث قال:.. ومناسـبة هـذه الآية لما قبلهـا ظاهرة، وهـو: أنّه لمـّـا أمر تعالى باتبـاع ملّـة إبراهيـم وكان حجُّ البيـت من أعظم شـعائر ملّـة إبراهيم ومـن خصوصيات دينـه، أخـذ في ذكـر البيـت وفضائلـه ليبنـي الحـج ووجوبـه. وأيضـاً فـإنّ اليهـود حـين حوّلـت القبلـة إلى الكعبـة طعنـوا في نبـوّة رسـول الله صلى الله عليه وآله وقالـوا: بيـت المقـدس أفضـل وأحـق بالاسـتقبال؛ لأنّـه وضـع قبل الكعبـة، وهـو أرض المحـشر، وقبلة جميـع الأنبياء، فأكذبهـم الله في ذلـك بقولـه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْـتٍ وُضِـعَ لِلنَّاسِ لَـلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَـارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾.

كـما أكذبهـم في دعواهـم قبل: إنّـما حرّم عليهـم ما كان محرّمـاً على يعقوب مـن قبل أن

تنـزل التـوراة، وأيضاً فـإنّ كل فرقة مـن اليهود والنصـارى زعمت أنّها على ملّـة إبراهيم، ومـن شـعائر ملّتـه حجُّ الكعبـة وهم لا يحجونهـا، فأكذبهـم الله في دعواهم تلـك، والأول هـو الفرد السـابق غيره...

أمّـا الآلـوسي، فقد اكتفى بذكر وجه المناسـبة بـين الآيـة ٩٦ : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّـاسِ لَـلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَـارَكاً وَهُـدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾. بما قبلهـا، دون الآيـة ٩٧. قائلاً: ... ووجـه ربطهـا بـما قبلهـا أنّ الله تعالى أمـر الكفـرة باتباع ملّـة إبراهيم ومـن ملّته تعظيم بيـت الله تعـالى الحـرام، فناسـب ذكـر البيـت وفضلـه وحرمتـه لذلـك، وقيـل: وجـه المناسـبة أنّ هـذه شـبهة ثانيـة ادّعوها، فأكذبهـم الله تعالى فيهـا كما أكذبهم في سـابقتها، والمعنـى: أنّ أول بيـت وضـع لعبـادة النـاس ربهـم أي هيّأ وجعـل متعّبـداً؛ والواضع هـو الله تعـالى كـما يدل عليه قراءة مـن قرأ ﴿وُضِعَ﴾ بالبنـاء للفاعـل ؛ لأنّ الظاهر حينئذٍ أن يكـون الضمـير راجعـاً إلى الله تعـالى وإن لم يتقـدم ذكـره سـبحانه صريحـاً في الآيـة بنـاءً عـلى أنّها مسـتأنفة، واحتـمال عـوده إلى إبراهيم عليه السلام لاشـتهاره ببنـاء البيت خلاف الظاهـر، وجملـة ﴿وُضِـعَ﴾ في موضع جـر على أنّها صفـة ﴿بيتٍ﴾ و ﴿لِلنَّـاس﴾ متعلق به واللام فيـه للعلّة.

وأما الإمام محمد عبده، فجاء كلامه من خلال ذكره شبهتين قد قرّرهما، وهما:

قالـوا: إذا كنـت يـا محمّـد عـلى ملّـة إبراهيـم والنبيّين مـن بعده ـ كـما تدّعـي ـ فكيف تسـتحلّ مـا كان محرّمـاً عليـه وعليهـم كلحـم الإبـل؟ أمـا وقـد اسـتبحت مـا كان محرّماً عليهـم فـلا ينبغـي لـك أن تدّعـي أنّـك مصـدّق لهـم وموافـق في الديـن، ولا أن تخـصّ إبراهيـم بالذكـر وتقـول: إنّـك أولى النـاس به.

ونحـن لا نريـد الوقـوف عنـد ردِّ هـذه الشـبهة، فليـس هو محـل كلامنا، وقـد ذكر في تفسـيره، ونكتفـي منـه بآخـر جـزء: ... وإذ كان الأمـر كذلـك ﴿فَاتَّبِعُـواْ مِلَّـةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ التـي أدعوكـم إليهـا حال كونه ﴿حَنِـيفاً﴾ لا غلـو فيما كان عليـه ولا تقصـير، ولا إفراط

ولاتفريط، بل هو الفطرة القويمة والحنيفية السمحة المبنية على الإخلاص لله وإسلام الوجه له وحده ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين يبتغون الخير من غيره تعالى، أو يخافون الضرّ من غير أسبابه التي مضت بها سنّته.

وأما الثانية فهي أنّهم قالوا: إنّ الله وعد إبراهيم بأن تكون البركة في نسل ولده إسحاق، وجميع الأنبياء من ذرية إسحاق كانوا يعظّمون بيت المقدس ويصلّون إليه؛ فلو كنت على ما كانوا عليه؛ لعظّمت ما عظّموا، ولما تحوّلت عن بيت المقدس وعظّمت مكاناً آخر اتخذته مصلّى وقبلة، وهو الكعبة، فخالفت الجميع.

وأمّا جواب الشبهة الثانية، فهو قوله عزَّوجلَّ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾.

وتقريره: أنّ البيت الحرام الذي نستقبله في صلاتنا هو أول بيت وضع معبداً للناس؛ بناه إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام لأجل العبادة خاصة، ثمّ بُني المسجد الأقصى ببيت المقدس بعده بعدّة قرون بناه سليمان بن داود عليهما السلام، فصحَّ أن يكون النبيّ صلى الله عليه وآله على ملّة إبراهيم، ويتوجّه بعبادته إلى حيث كان يتوجه إبراهيم وولده إسماعيل ...

ثمَّ ذكر قوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾، أي فيه دلائل أو علامات ظاهرة لا تخفى على أحد... وراح يذكر هذه الآيات حتى عدَّ ﴿وللهِ عَلَى النَّاس حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾، وهي الآية الأولى على وجوب فريضة الحج؛ عدَّها آيةً من آيات هذا البيت المبارك، فقال: أما قوله تعالى: ﴿وللهِ عَلَى النَّاس حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾، فهو بيان آية ثالثة من آيات هذا البيت؛ جاءت بصيغة الإيجاب والفرضية في معرض ذكر مزاياه ودلائل كونه أول بيوت العبادة المعروفة للمعترضين من اليهود على استقباله في الصلاة، فهو يفيد بمقتضى السياق معنى خبرياً، وبمقتضى الصيغة معنى إنشائياً، وهو وجوب الحجّ على المستطيع من هذه الأمة.

يقول محمد رشيد رضا: أشار إلى ذلك الأستاذ الإمام بقوله: هذه الجملة ـ وإن

جاءت بصيغة الإيجاب ـ هي واردة في معرض تعظيم البيت، وأيّ تعظيم أكبر من افتراض حجّ الناس إليه؟ وما زالوا يحجّونه من عهد إبراهيم عليه السلام إلى عهد محمّد صلى الله عليه وآله، ولم يمنع العرب عن ذلك شركها، وإنّما كانوا يحجّون عملاً بسنّة إبراهيم، يعني أنّ الحجّ عمل عام جروا عليه جيلاً بعد جيل على أنّه من دين إبراهيم، وهذه آية متواترة على نسبة هذا البيت إلى إبراهيم، فهي أصحّ من نقول المؤرخين التي تحتمل الصدق والكذب، وبهذا وبما سبقه بطل اعتراض أهل الكتاب، وثبت أنّ النبي على ملّة إبراهيم دونهم.

وهكذا يقول ابن عاشور: ويجوز أن نجعل قوله تعالى: ﴿وللهِ عَلَى النَّاس حِجُّ الْبَيْتِ...﴾ متضمّناً الثالثة من الآيات البيّنات. حُكم أعقب به الامتنان لما في هذا الحكم من التّنويه بشأن البيت فلذلك حسن عطفه. والتّقدير مباركاً وهدى، وواجباً حجّه. فهو عطف على الأحوال.

السيد العلاّمة في الميزان: يتحدّث عن أنّ هاتين الآيتين كانتا جواباً عن شبهة يهودية عمّا وقع في موضوع تحويل القبلة، فيقول: الآيتان جواب عن شبهة أخرى كانت اليهود توردها على المؤمنين من جهة النسخ، وهي ما حدث في أمر القبلة بتحويلها من بيت المقدس إلى الكعبة، وقد مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.[1] إنّ تحويل القبلة كان من الأمور الهامة التي كانت لها تأثيرات عميقة مادية ومعنوية في حياة أهل الكتاب ـ وخاصة اليهود ـ مضافاً إلى كونه مخالفاً لمذهبهم من النسخ، ولذلك طالت المشاجرات والمشاغبات بينهم وبين المسلمين بعد نزول حكم القبلة إلى أمد بعيد. والمستفاد من الآية ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ ...﴾ أنّهم جمعوا في شبهتهم بين شبهة النسخ وبين انتساب الحكم إلى ملّة إبراهيم، فيكون محصّل الشبهة أنّ الكعبة كيف يمكن أن يكون قبلة في ملّة إبراهيم مع أنّ الله جعل بيت المقدس قبلة، وهل هذا

١. البقرة: ١٥٠.

إلّا القول بحكم نسخي في ملّة إبراهيم الحقّة مع كون النسخ محالاً باطلاً؟

والجواب: أنّ الكعبة موضوعة للعبادة قبل غيرها كبيت المقدس، فلقد بناها إبراهيم من غير شك ووضعها للعبادة، وفيها آيات بينات تدل على ذلك كمقام إبراهيم، وأمّا بيت المقدس فبانيه سليمان، وهو بعد إبراهيم بقرون ...[1]

رابعاً:

﴿وَأَذِّن فِي النَّاس بالْحَجِّ يَأْتُوكَ رجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِر يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيق * ...﴾.[2]

وهي الآية الثانية التي استفيد منها وجوبُ الحجِّ، وقد جاءت في سورة سمّيت سورة الحجِّ؛ لأهمية هذه الفريضة، وتُعدُّ بدايتها مشهداً من مشاهد يوم القيامة: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْل حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى ولَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾.١ـ٢ .

فلعلَّ في هذا إشارة إلى أنَّ فريضة الحجّ تذكّرنا، وبالذات حين يجتمع الناس، بما فيه من تزاحم وتدافع وجهد وتعب وعطش... على صعيد واحد بدءًا بعرفات، والمشعر الحرام المزدلفة، فمنى، وبطواف بالبيت، وسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمرات... بلا تمييز ولا تفضيل، يرتدون لباساً واحداً متشابهاً لا تكلّف فيه، تذكّرنا هذه الفريضة بمناسكها بتلك الساعة وأهوالها، وبذلك اليوم الجامع كما جاء بضراعة

١. انظر تفسير الطبري؛ ولباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي؛ التحرير والتنوير، لابن عاشور؛ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي؛ تفسير البحر المحيط، أبو حيان؛ ومجمع البيان، للطبرسي؛ تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا، فيه تفصيل طويل، اخترنا شيئاً منه يناسب المقالة؛ تفسير الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي: الآيتان.

٢. الحج: ٢٧.

المؤمنين الصالحين: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾. وبصوره، مشهد الحشر الأكبر على صعيد واحد لا غير في زحام شديد مهول بما فيه!...، فنستذكر في مشاهد الحج صوراً مصغّرةً من مشاهد يوم القيامة؛ يوم يُحشر الناس إلى ربِّهم ...

إنَّ هذه الآية وردت في نطاق مقطع هو الأطول حديثاً عن الحجِّ، ولعلَّ السورة بسببه سميت (سورة الحجّ) أو لذكر فريضة الحج على لسان نبيّ الله إبراهيم عليه السلام بعد بناء البيت العتيق (الكعبة)، ويبدأ من الآية ٢٥ ـ ٣٧ من سورة الحجِّ، بدايةً، إنَّ هناك ثنائيّات عادةً ما نجدها في التنزيل العزيز، فما إن يتعرّض التنزيل العزيز للإنس حتى يذكر الجنَّ، وما إن يذكر الثواب حتى يردفه بالعقاب، وما إن يتحدث عن الذَّكر حتى يذكر الأنثى، وهكذا يذكر الدنيا فيذكر الآخرة، ولمّا ذكر تعالى الخصمين بقوله: ﴿هَـذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ ...﴾ الحجّ: ١٩. وما أعدّ لأحد الخصمين من العذاب ﴿...فَالَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ...﴾. الحجّ:١٩ ـ ٢٢؛ شرع بذكر الخصم الآخر ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ وما أعدّ لهم من الثواب: ﴿إِنَّ اللّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ولُؤْلُؤاً ولِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾: الحجّ:٢٣. كما كان سبب استحقاق المؤمنين ذلك النعيم اتّباعهم صراط الله، كما في الآية: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُواْ إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾. الحج: ٢٤.

كذلك كان سَبَبُ استحقاق المشركين ذلك العذَاب كفرَهم وصدّهم عن سبيل الله... كما في الآية التالية، وذلك بعد أن تحدّث عن هذين الخصمين: ﴿... الَّذِينَ كَفَرُواْ...﴾ و ﴿... الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ...﴾ وما يؤول إليه أمرهما في الآخرة، عاد التنزيل العزيز؛ ليتوعّد الخصم الأول: ﴿الَّذِينَ كَفَرُواْ ...﴾ بأن ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لما يرتكبه من الصدِّ عن: ﴿سَبِيلِ اللّهِ والْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ

بظُلْـم...﴾، ﴿إِنَّ الَّذِيـنَ كَفَـرُواْ وَيَصُـدُّونَ عَن سَـبِيلِ اللَّهِ والْمَسْـجِدِ الْحَـرَامِ الَّذِى جَعَلْنَـاهُ لِلنَّـاسِ سَـوَآءً الْعَاكِـفُ فِيـهِ وَالْبَـادِ وَمَن يُـرِدْ فِيهِ بِإِلْحَـادٍ بِظُلْـم نُّذِقْهُ مِنْ عَـذَابٍ أَلِيم﴾.

لينتقل الحديث إلى إعداد البيت المبارك، وتطهيره ...

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَـا لإِبْرَاهِيـمَ مَـكَانَ الْبَيْـتِ أَن لاَّ تُـشْرِكْ بِى شَـيْئاً وَطَهِّرْ بَيْـتِىَ لِلطَّآئِفِينَ والْقَآئِمِـينَ والرُّكَّع السُّـجُودِ﴾.

كلُّ هـذا جـاء ـ كـما يبـدو ـ تمهيـداً لذلـك الأذان المبارك؛ الـذي يحمل تشريـع فريضة الحـجِّ؛ في مقطـع أغلبـه يحمل عـدداً من أحـكام الحـجّ وأعماله ومفاهيمـه وآدابـه: ﴿وأَذِّن فِى النَّـاسِ بالْحَـجِّ يَأْتُوكَ رجَـالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِـينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ *لِّيَشْـهَدُواْ مَنَافِـعَ لَهُـمْ وَ يَذْكُرُواْ اسْـمَ اللهِ فِى أَيَّـامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَـا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَـةِ الأَنْعَامِ فَكُلُـواْ مِنْهَـا وَأَطْعِمُـواْ الْبَآئِـسَ الْفَقِـيرَ * ثُـمَّ لْيَقْضُـواْ تَفَثَهُـمْ وَ لْيُوفُـواْ نُذُورَهُـمْ وَ لْيَطَّوَّفُـواْ بالْبَيْـتِ الْعَتِيـقِ * ذلِـكَ وَ مَـن يُعَظِّمْ حُرُمَـاتِ اللهِ فَهُـوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنـدَ رَبِّهِ وَ أُحِلَّـتْ لَكُـمُ الأَنْعَـامُ إِلَّا مَـا يُتْـلَى عَلَيْكُـمْ فَاجْتَنِبُـواْ الرِّجْـسَ مِـنَ الأَوْثَـانِ وَ اجْتَنِبُـواْ قَـوْلَ الـزُّورِ * ... وَ الْبُـدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّن شَـعَآئِرِ اللهِ لَكُـمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُـرُواْ اسْـمَ اللهِ عَلَيْهَـا صَـوافَّ فَإِذَا وَجَبَـتْ جُنُوبُهَا فَكُلُـواْ مِنْهَا وَ أَطْعِمُـواْ الْقَانِعَ وَ الْمُعْـتَرَّ كَذلِـكَ سَـخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْـكُرُونَ *لَـن يَنَـالَ اللهَ لُحُومُهَا وَ لاَ دِمَآؤُهَـا وَ لَكِـن يَنَـالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذلِكَ سَـخَّرَهَا لَكُـمْ لِتُكَـبِّرُواْ اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَ بَشِّرِ الْمُحْسِـنِينَ﴾. الحـجّ : ٢٥ـ٣٧ .

وأمّـا المخاطـب في آيـة الأذان: ﴿وَ أَذِّن فِى النَّـاسِ بالْحَـجِّ ...﴾، فذكـروا فيـه قولـين:

الأول: نبـيّ الله إبراهيـم عليه السلام.

قـال ابـن عبـاس: قـام في المقـام، وعنـه أنّـه قـام على جبـل قبيـس، ووضـع إصبعيه في أُذنيـه، وقـال: «يـا أيّهـا النـاس، أجيبـوا ربّكـم، فأجابـوه بالتلبية في أصـلاب الرجال

وأرحام النسـاء».[1]

الثـاني: رسـول الله محمـدﷺ؛ أي وأذّن يـا محمـد في الناس بالحـجّ، فـأذّن صلوات الله عليـه في حجـة الـوداع أي أعلمهـم بوجـوب الحـجّ عـن الحسـن والجبائـي. وإنَّ جمهـور المفسريـن عـلى القول هـذا...

وكذلـك روي عـن الإمـام الصـادقعليه السلام: «أنَّ رسـول اللهﷺ أقام بالمدينة عشر سـنين لم يحـجّ، ثـمّ أنـزل الله عزّوجـلَّ عليـه: ﴿وَ أَذِّن فِي النَّـاس بالْحَـجِّ يَأْتُـوكَ رجَـالاً وَ عَلَى كُلِّ ضَامِـر يَأْتِـينَ مِـن كُلِّ فَـجٍّ عَميـق﴾. فأمر المؤذّنـين أن يؤذّنـوا بأعلى أصواتهـم، بأنَّ رسـول اللهﷺ يحـجّ في عامـه هذا، فعلم بـه من حضر المدينـة، وأهل العـوالي، والأعراب، فاجتمعـوا الحـجّ رسـول اللهﷺ، وإنّـما كانوا تابعـين ينظرون ما يؤمـرون بـه و يتبعونه، أو يصنع شـيئاً فيصنعونـه،...».[2]

هـذا وإنَّ وجـوب الحـجّ وأفعالـه وأنواعـه وأحكامـه حتـى وإن وقـع بهـذه الآية من زمـن نبـيِّ الله إبراهيـمعليه السلام؛ إلّا أنّـه وقع أيضـاً على هـذه الأمّة المسـلمة بها وبآيـات قرآنيّة أخـرى، وعـلى لسـان نبيّنا محمّـدﷺ كقولـه تعالى:

﴿... وللّهِ عَلَى النَّـاسِ حِـجُّ الْبَيْـتِ مَن اسْـتَطَاعَ إِلَيْهِ سَـبيلاً وَمَن كَـفَـرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَن الْعَالَمِـين﴾. آل عمران : ٩٧ .

﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ للّهِ ...﴾ البقرة : ١٩٦ .

﴿الْحَـجُّ أَشْـهُرٌ مَّعْلُومَـاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهنَّ الْحَـجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُـوقَ وَلاَ جدَالَ فِي الْحَجِّ ...﴾. البقـرة : ١٩٧ . وبآيات أخرى.

فهـو فريضـة قديمـة مـن عهـد نبـيِّ الله إبراهيـمعليه السلام، وهـو فريضـة جديدة عـلى عهد رسـول اللهﷺ... وخطابـه يفـترق عن خطـاب الفرائض الأخـرى فهو للنـاس كافة؛ ﴿وَ

١ . تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي ٧ : ١٤٥ .

٢ . الكافي، الكليني ٤ : ٢٤٥ .

لِلّهِ عَلَى النَّـاس حِـجُّ الْبَيْتِ مَن اسْـتَطَاعَ إِلَيْهِ سَـبيلاً﴾ ، ﴿وَ أَذِّن فِي النَّاس بالْحَجِّ...﴾، ﴿ثُـمّ أَفِيضُـوا مِـنْ حَيْثُ أَفَـاضَ النّاسُ﴾، وهكـذا هي مواقع مناسـك الحج:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْـتٍ وُضِـعَ لِلنَّاس لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَاركًا وَ هُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ ، ﴿وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَـةً لِّلنَّاس وَ أَمْنًا...﴾ ، ﴿ .. وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَام الَّـذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاس ...﴾.[1]

سبب نزول الآية:

هنـاك حالتـان كانـوا يعملـون بهـا إذا أرادوا الحـجَّ، ذكرتهما الأخبـار، فعـن مجاهد أنه قـال: كانـوا يحجّـون ولا يتـزوّدون، فأنـزل الله: ﴿وَتَـزَوَّدُواْ فَـإِنَّ خَـيْرَ الـزَّادِ التَّقْـوَى وَ اتَّقُـون يـاأُوْلِى الأَلْبَـابِ﴾، البقرة: ١٩٧ . وكانـوا يحجّـون ولا يركبون، فأنـزل الله: ﴿... يَأْتُـوكَ رِجَالاً وَعَـلَى كُلِّ ضَامِرٍ...﴾. الحـجّ : ٢٧، فأمرهم بالـزاد ورخّص لهم في الركوب والمتجر!

وكـذا عـن ابن عباس، قـال: كان أهـل اليمن يحجّـون ولا يتـزودون، ويقولون: نحن المتوكلـون! فأنـزل الله: ﴿وَتَـزَوَّدُواْ فَـإِنَّ خَيْرَ الـزَّادِ التَّقْـوَى وَ اتَّقُون يـاأُوْلِى الأَلْبَابِ﴾، البقرة: ١٩٧ .

وعـن ابن عمـر، قال: كانـوا إذا أحرمـوا ومعهـم أزوادهم، رمـوا بها، واسـتأنفوا زاداً آخـر، فأنـزل الله تعـالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَـإِنَّ خَيْرَ الـزَّادِ التَّقْـوَى وَ اتَّقُون يـاأُوْلِى الأَلْبَابِ﴾، فنهـوا عن ذلك، وأمـروا أن يتزودوا الدقيق والسـويق والكعك. لكنّهـا لم يذكرا الركوب والمتجر.[2]

---

١ . انظرهـا في مصادرهـا، منهـا: كتاب كنز العرفـان في فقه القرآن، للشـيخ السـيوري (ت٨٢٦ هجرية) كتـاب الحـجّ٢ : ٢٥٧ـ٣٤٠ ؛ وانظـر التفاسـير ، ومنهـا: تفسـير جامـع البيـان في تفسـير القـرآن، للطـبري؛ ومجمع البيان، للشـيخ الطبرسي: الآيات ؛ وانظر تفسـير البرهان في تفسـير القرآن، هاشـم الحسـيني البحـراني ؛ ووسـائل الشـيعة؛ بـاب ٢ من أبواب أقسـام الحـج ح ٤ .

٢ . تفسير الطبري ؛ وعمدة التفاسير، لابن كثير ؛ والدرّ المنثور، للسيوطي ؛ وغيرها: الآية .

المناسبة:

وقعت آية الأذان هذه في مقطع قرآني كريم طويل يبدأ من الآية ٢٥ـ٣٧ من سورة الحجّ؛ ولعلّ وجود هذا المقطع الذي تميّز بطوله وكثرة أحكامه، وذكره للبيت الحرام وبيان أهميّته ... كان سبباً ـ كما ذكرنا ـ لتسمية السورة بسورة الحجّ. ومن هذا:

أولاً: أنَّ الآية ومفردة الحجّ بالذات، باحتلالها هذه المنزلة في هذا المقطع، تثبت علاقةً مهمةً وارتباطاً وثيقاً بآيات المقطع السابقة لها واللاحقة، ولضرورة بيان ذلك من خلال دراسة المقطع؛ وذلك بالرجوع إلى آياته، وباختصار يناسب المقالة، فقد جاءت الآية بمفردة الحجّ الواردة فيها في معرض الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِى جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَ الْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. الحج: ٢٥، التي تُندّد بالكافرين في مكة وبأعمالهم؛ بصدّهم عن سبيل الله، وعن الدعوة إليه... وبصدّ الناس عن المسجد الحرام ...

وهو صدٌّ عن سبيل الله، لكنّه خصّ بالذكر اهتماماً به، فكانوا يمنعون المؤمنين عن دخوله، وعن أدائهم لعباداتهم ومناسكهم من حجّ وعمرة ... وهذا يشكل اعتداءً على إرادته تعالى، فهو الذي جعله للناس كما في الآية: ﴿جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَ الْبَادِ﴾.

ثانياً: العاكف فيه، وهو المستقرّ في المسجد، أو الملازم له في أحوال كثيرة، وهو كناية عن الساكن بمكة؛ لأنّ الساكن بمكة يعكف كثيراً في المسجد الحرام، بدليل مقابلته بالبادِي الذي هو البعيد عنه إذا دخله، فجعله الله لهم مستقراً ومنسكاً ومتعبداً ... إلّا أنَّ المنع حال دون ذلك، فالصدُّ والمنع والتضييق كلّ منها وسيلة من وسائل تعذيبهم للمؤمنين في مكة، وإبعادهم عن أعزِّ مكان على نفوسهم، كما أنَّهم منعوا المسلمين بعد هجرتهم إلى المدينة من زيارة البيت؛ فهذا أبو جهل يقول لسَعْد بن معاذ لما جاء

إلى مكّـة معتمـراً، وقـال لصاحبـه أميّة بن خلـف: انتظرني سـاعة من النهار؛ لعـلّي أطوف بالبيـت، فبينما سـعد يطـوف إذ أتاه أبـو جهل وعَرَفَهُ، فقـال له أبو جهـل: أتطوف بالكعبة آمنـاً، وقد أوتيتـم الصُباة؟! يعني المسـلمين.

ومـن المنـع أيضـاً مَا صنعوه يـوم الحديبية، حتـى قيـل: إنّ الآية نزلـت في الذين صدّوا رسـول الله ﷺ عن مكة عـام الحديبية ...

وينتقل السـياق إلى التنويه بالمسـجد الحرام، توطئـةً، وبناءً، وإعداداً وتطهـيراً، وإبعاداً لـه عـن الـشرك وعـن عبـادة غـير الله تعـالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَـا لِإِبْرَاهِيـمَ مَـكَانَ الْبَيْـتِ أَن لاَّ تُـشْرِكْ بِى شَـيْـئاً وَطَهِّـرْ بَيْـتِىَ لِلطَّآئِفِـينَ وَالْقَآئِمِينَ وَالرُّكَّعِ ٱلسُّـجُودِ﴾.

وهـذا كلُّـه تمهيـدٌ لـلأذان بالحجِّ، وأنَّـه بدأ بتهيئـة البيت وتطهـيره، ودليـلٌ على عظمة فريضـة الحـجِّ وأهميتهـا في أن تُـؤدّى في أماكـن لا شرك يلوثهـا، ولا عبادة أصنـام وأوثان تنتهكهـا... ﴿وَ أَذِّن فِي النَّـاس بالْحَـجِّ يَأْتُـوكَ رجَـالاً وَ عَلَى كُلِّ ضَامِـر يَأْتِـينَ مِن كُلِّ فَـجٍّ عَميق﴾.

وهـذا الأمـر لإبراهيـم عليه السلام يُعـدُّ بدايـة مباركـة لتشريـع فريضـة الحـجّ. وقـد ألحـق بآيـات أخـرى (٢٨ـ٣٧ الحـجّ) لبيان منافع الحـجّ، والأمر بذكـر الله تعـالى، ومنها أمرهم بالطـواف بالبيـت ...

إذن، فآيـة الأذان بالحـجّ قـد احتلـت مكانهـا بـين آيـات عديـدة، سـابقة لهـا ولاحقة، تحيـط بهـا؛ لتشـكل ارتباطاً عـبر سـياق واضح خاصـةً حين تبـدأ بالتنديـد بأولئـك ﴿إِنَّ الَّذِيـنَ كَفَـرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَـبيل اللهِ وَالْمَسْـجِدِ الْحَـرَام...﴾. وتهديدهم بعذاب أليـم، مـروراً بنبـذ الـشرك وبنـاء البيـت وإعـداده وتطهـيره لأصنـاف مـن العبّـاد؛ بعـد الوصيـة لإبراهيـم عليه السلام ألا يـشرك بالله شـيئاً في الآيـة: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَـا لِإِبْرَاهِيمَ مَـكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُـشْرِكْ بِى شَـيْـئاً وَطَهِّـرْ بَيْـتِىَ لِلطَّآئِفِـينَ وَالْقَآئِمِـينَ وَالرُّكَّعِ السُّـجُودِ﴾.

ولـمّا فرغ إبراهيـم عليه السلام من ذلك؛ أوحى الله إلـيه بأمره ﴿وَ أَذِّن فِي النَّـاس بالْحَجِّ ...﴾

ليأتي تكليف السماء لنبيّ الله وخليله إبراهيم عليه السلام، ولرسول الله محمد صلى الله عليه وآله مزيداً لتوحيده تعالى، وعبادته في هذه البقعة المباركة نبذاً للشرك، وتنزيهاً لساحتها المباركة عن شوائب وأعمال أهل الجاهلية وعباداتهم وأفعالهم وتصوراتهم...

كما أنَّ الآية، وإن بيّنت تشريع الحجِّ من عهد نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام بالأذان، وبيّنت أنّهم ﴿يَأْتُوكَ رجَالاً وَ عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾. فقد أُلحقت بآيات أُخر؛ قد تبلغ إحدى عشرة آية في سياق يتعلق بأحكام وأعمال إتيان البيت الحرام ... كما أنّها سبقت بآيات تندّد بالكفّار وتتوعّد المشركين بسبب صدّهم عن المسجد الحرام، وما أحدثوه من الشرك في البيت العتيق ... إلّا أنَّها لم تكتفِ بذلك أيضاً ولا بتشريع الحجّ فقط، بل كانت كبقيّة آيات الحجِّ قد عالجت ـ إنَّ صحَّ سبب نزولها عن مجاهد ـ بما ذكر فيها من قوله تعالى: ﴿وَ عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ ...﴾. أمراً كانوا يرونه ويعملون به في أداء فريضة الحج وهو أن يأتوا الحجَّ مشاةً، يسيرون على أقدامهم، لا ركباناً. ولا أدري أكان هذا اعتقاداً منهم أنَّه من شروط أداء الحجِّ، وأنَّه لا يصحُّ إلّا مشياً دون الركوب، أو أنَّه كان منهم طلباً للأجر وزيادةً في الثواب، باعتبار أنَّ الأجر على قدر المشقة، وإلّا فالركوب يجوز أيضاً ... ومن هنا الآية لتصحّح ما اعتقدوه: ﴿يَأْتُوكَ رجَالاً وَ عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ...﴾ فرخّصت لهم في الركوب، وبدأت بذكر المشاة تشريفاً لهم، وقد روى سعيد بن جبير بإسناده عن النبيِّ صلى الله عليه وآله أنه قال:

«إنّ الحاجّ الراكب له بكلِّ خطوة تخطوها راحلته سبعون حسنة، وللماشي سبعمائة حسنة من حسنات الحرم، قيل: يا رسول الله، وما حسنات الحرم؟ قال: الحسنة بمائة ألف حسنة»!

خامساً:

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ* وأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاس يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِىءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ

تُبْتُـمْ فَهُـوَ خَـيْرٌ لَّكُـمْ وَإن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُـواْ أَنَّكُمْ غَـيْرُ مُعْجِزى اللهِ وَبَـشِّرِ الَّذِينَ كَفَـرُواْ بعَـذَاب أَلِيـم﴾. ١ـ٣ التوبة.

سـورة بـراءة أو التوبة، اخترنا هذين الاسـمين من أسـمائها العديـدة التي بلغت عشرة أسـماء أو أكثر؛ لأنّهما قرآنيّان، جاءت بهما السـورة نفسـها، فالاسـم الأول (براءة) مفتتحة بـه ونزلـت بإظهـار البراءة مـن المشركين، والثـاني: (التوبة) لكثـرة ما فيها مـن الكلام عن التوبـة والدعوة إليها.

وهـي سـورة مدنيّـة كلّهـا، وفي قـول غـير الآيتـين الأخيرتـين ١٢٨ـ١٢٩: ﴿لَقَـدْ جَآءَكُمْ رَسُـولٌ مِّنْ أَنفُسِـكُمْ عَزِيـزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّـمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُـمْ بالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيـمٌ* فَـإنْ تَوَلَّـوْاْ فَقُـلْ حَسْـبِىَ اللهُ لاَ إلَهَ إلاَّ هُـوَ عَلَيْـهِ تَوَكَّلْـتُ وَهُـوَ رَبُّ الْعَـرْش الْعَظِيم﴾.

وأمّـا عـن وقـت نزولها، فلعلّها كانـت آخر أو من أواخـر ما نزل من التنزيـل العزيز في السـنة التاسـعة الهجرية؛ بـين فتح مكة في السـنة الثامنة وحجّـة الوداع في السـنة العاشرة، ولعـلَّ بعضـاً منها والمتمثـل بمقطعها الأول من الآيـة الأولى حتى الآيـة الثامنة والعشرين نـزل قبل معركـة تبـوك التـي وقعـت في رجـب من العـام التاسـع للهجـرة، وبعضـاً آخر حـين كان رسـول الله صلى الله عليه وآله يُعدُّ المسـلمين لهـا، فيما كان نـزول الباقي بعد الرجـوع منها.

وأمّـا مضامينهـا فإنّها تحدّثت عن العلاقـات مع كلّ من مشركي مكـة، وأهل الكتاب، وعـن المنافقـين وفضـح مواقفهـم في أكثر من نصـف آياتها، ومـن هنا سـمّيت بالفاضحة كـما في روايـة عن سـعيد بـن جُبير، قـال: سـألت بـن عبـاس ـ رضي الله عنه ـ عن سـورة بـراءة، فقـال: تلـك الفاضحة، مـا زال ينزل؛ ومنهـم ومنهم حتـى خفنا ألّا تـدع أحداً...

وتحدّثـت عن طوائف السـاحة المسـلمة كالسـابقين مـن المهاجرين والأنصـار، وأهل بـدر، وأصحـاب بيعـة الرضوان، والذيـن أنفقوا قبل الفتـح وقاتلوا، والذيـن أنفقوا بعده وقاتلـوا، مـروراً بالمخلّفـين والمتثاقلـين والقاعدين، وعن الأعـراب، وهنـاك أمور أخرى

بين ما ذكرناه تعرّضت لها السورة.

هذا، وتُعدُّ سورة التوبة، خاصةً الآيات الثمانية والعشرين منها التي تشكل بدايتها، هي الأشدُّ على المشركين، ولذلك كانت السورة الوحيدة من التنزيل العزيز التي بدأت بلا بسملة، حتى أنَّ أمير المؤمنين عليًّا عليه السلام، لم يُبسمل حين بدأ بقراءتها في الموسم، وتبليغ ما فيها من مضامين وأحكام، وقد نُسب إليه عليه السلام أنَّ: «بسم الله أمان، وبراءة نزلت لرفع الأمان». سأله ابن عباس: لِمَ لَمْ يُكتب في براءة بسم الله الرحمن الرحيم؟ قال: «لأنَّ بسم الله الرحمن الرحيم أمان، وبراءة نزلت بالسيف ليس فيها أمان». أو لم ينزل بسم الله الرحمن الرحيم على رأس سورة «براءة»؛ لأنّ بسم الله للأمان والرحمة، ونزلت براءة لرفع الأمان بالسيف.

ولغيره، أنَّ: بسم الله الرحمن الرحيم رحمة، وبراءة نزلت سخطة...

وفي قول آخر: لأنّ التسمية رحمة، والرحمة أمان، وهذه السورة نزلت في المنافقين وبالسيف، ولا أمان للمنافقين.

وفي قول آخر أيضاً: أنَّ التسمية لم تكتب؛ لأنَّ جبريل عليه السلام ما نزل بها في هذه السورة. إلى غيرها من أقوال في سبب سقوط البسملة منها.

وقال وهبة الزحيلي: إنَّ افتتاح السورة بالبراءة وبدون بسملة يُدخل في النفس الرهبة الشديدة والخوف الأشدّ.[1]

هذه السورة بكاملها، أو بالآيات الثماني والعشرين أو الأربعين منها، على الاختلاف فيها، والتي قرأها وبلغها الإمامُ عليٌّ عليه السلام، تشدُّ انتباه كلِّ قارئ وسامع إلى قبح الفعل وشناعته، ألا وهو الشرك والمشركون، حقًّا، ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، سورة لقمان:١٣، ذاك الذي استحقّوا بسببه أن لا تبدأ بالبسملة أولاً، وثانياً أن تكون بدايتها بالمصدر ﴿بَرَآءَةٌ﴾ و ﴿بَرَآءَةٌ﴾ هذه؛ خطورتها أنَّها صدرت من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله

١. التفسير المنير، للدكتور وهبة الزحيلي ٥ : ٤٥١ سورة التوبة : الآيات .

ليُشكل مرادها بما فيه من تفخيم وتهويل وقوة انقطاعاً للعصمة، وخروجاً من العهود، ورفعاً للحظر المترتّب عليها، وإنهاءً لحكم الأمان الذي طالما كان مشركو مكة وما حولها يتمتّعون به وفقاً للمواثيق والعهود التي أُبرمت بينهم وبين رسول الله ﷺ لكنّهم كانوا لا يألون جهداً في نقضها ونكثها، وليس هذا غريباً على مشركي مكة، فتاريخهم مع الإسلام نكث للأيمان ونقض للعهود، وما خرقهم لعهد الحديبية إلّا دليلٌ على ذلك، مع أنّه يحمل من شروطٍ تقع في فائدتهم وافق عليها رسول الله ﷺ بإلهام من الله تعالى، واغتمّ بعض الصحابة لبعضها، واستفزّت عمر بن الخطاب حتى تجرّأ، وراح يجادل النبيَّ ﷺ من دون الصحابة حتى الذين اغتموا، قائلاً: أَلَسْتَ نَبيَّ الله حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى. أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى. فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: «إِنِّي رَسُولُ الله ولَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي ...».

ولو كان عمر مدركاً للحكمة، وعرف معنى التسليم لرسول الله عليه السلام لما جادل الرسول ﷺ هذا أولاً، وثانياً: لو قلنا لتأثّره وعدم قدرته على لجم غضبه والتحكم بمشاعره، لا لغرض كان يبتغيه وشيء كان يُخفيه؛ لاكتفى بإجابته ﷺ دون أن يعيد أسئلته هنا وهناك، ممّا يدل إمّا على عدم اقتناعه بإجابة رسول الله ﷺ عن سؤاله الذي كان من الأجدر أن يوجّهه لنفسه أو لغيره ممن حوله من الصحابة؛ ليسترشد قبل أن ينطق به: ... فَلِمَ نُعطي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟! وهل يقبل ﷺ بالدَّنِيَّةَ في الدين،...؟! ولكنّه الشك الذي انتابه يومئذٍ كما صرّح به: ما شككتُ منذ أسلمتُ إلّا يومئذٍ...! ... فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالاً!

ولا أدري ما هي؟! أهي التي جاءت في قوله: «ما زلت أصوم وأصلّي وأتصدّق وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمتُ به يومئذٍ، حتى رجوتُ أن يكون خيراً» أو غيرها؟! ... فنزلت سورة الفتح، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمر فأقرأه إياها، فقال: يا رسول الله أو فتح هو؟ قال: «نعم». إنّها الحكمة من تلك

الهدنـة وذلك العهـد..![1]

أمّـا بخصـوص الآيـة فقـد ذكـروا أنَّ الـبراءة تعني قطـع المـوالاة، وارتفـاع العصمة، وزوال الأمـان، وقـد جـاءت الآيـة بعـد أن أخـذت العـرب تنقـض عهـوداً قطعتهـا مع رسـول الله صلى الله عليه وآله فأمـره الله تعـالى بإلقاء عهودهـم إليهم ﴿بَرَاءَةٌ مِـنَ اللهِ وَرَسـولِهِ إلى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ...﴾.

والخطـاب الذي تحملـه الآيـة ﴿إلى الَّذِينَ عاهَدْتُـمْ...﴾ هو لأصحاب رسـول الله صلى الله عليه وآله والمـرادُ رسـول الله صلى الله عليه وآله؛ لأنّـه هو الـذي كان يتـولَّى المعاهـدة، وأصحابُه راضـون؛ فكأنّهم بالرضـا عاهـدوا أيضاً؛ وهـذا عـام في كلّ عهوده صلى الله عليه وآله.

يقـول الطـبري: والمعنى إلى الذين عاهد رسـول الله صلى الله عليه وآله من المشركـين؛ لأنَّ العهود بين المسـلمين والمشركـين على عهد رسـول الله صلى الله عليه وآله لم يكـن يتولّى عقدهـا إلّا رسـول الله صلى الله عليه وآله أو مـن يعقدها بأمـره، ولكنّه خاطـب المؤمنين بذلـك لعلمهم بمعنـاه، وأنَّ عقـود النبيّ صلى الله عليه وآله عـلى أمّتـه كانـت عقودهـم؛ لأنّهـم كانـوا بـكلّ أفعالـه فيهـم راضـين، وبعقـوده عليهـم مسـلمين، فصار عقـده عليهم كعقودهم على أنفسـهم، فلذلك قـال: ﴿إلى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِـنَ الْمُشْرِكـِينَ...﴾ لما كان مـن عقد رسـول الله صلى الله عليه وآله وعهده..

وأمّـا الشـيخ الطـبرسي فيقول: خطـاب للنبـيِّ صلى الله عليه وآله وللمسـلمين، والمعنى تـبرؤوا ممن كان بينكـم وبينهـم عهـد مـن المشركين، فـإنَّ الله ورسـوله بريئان منهـم. ثمَّ يذكـر ما قاله الزجـاج: معنـاه قـد برئ الله ورسـوله مـن إعطائهم العهـود والوفـاء لهم بهـما إذ نكثوا.

وإذا قيل: كيف يجوز أن ينقض النبيُّ صلى الله عليه وآله العهد؟

فالقول فيه: إنه يجوز أن ينقض ذلك على أحد ثلاثة أوجه:

إمّـا أن يكـون العهد مشروطـاً بأن يبقـى إلى أن يرفعه الله تعـالى بوحي، وإمّـا أن يكون

١. انظـر المصنـف، لعبد الرزاق رقم ٩٤١٩؛ مسـند الإمام ابن حنبل ٤ : ٣٤٩؛ تفسـير الطبري؛ تفسـير ابن كثير؛ تفسـير الميزان في تفسـير القرآن، للعلامة الطباطبائي: سـورة الفتح، وغيرهم.

قد ظهر من المشركين خيانة ونقض فأمر الله سبحانه بأن ينبذ إليهم عهدهم، وإمّا أن يكون مؤجلاً إلى مدة فتنقضي المدة وينتقض العهد.[1]

المناسبة:

ذكروا أنَّ آية الأذان لها ارتباط وعلاقة بما قبلها وما بعدها من الآيات، حتى إنَّ صاحب المطالع ذكر أنَّ هناك مناسبة بين بداية سورة التوبة وخاتمتها؛ حيث ذكر أنَّ السورة افتتحت بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى﴾. وختمت بقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ﴾.[2]

وكأنَّ سياق آيات هذه السورة يُوحي بالعلاقات بينها والترابط، ولكنّنا نقف عند ما تيسّر لنا من بيان للعلاقة بين آية الأذان وآية البراءة؛ وما يتوفر عليه من إعلان لها، ولكن قبل هذا نذكر ولو من باب الاستئناس أنَّ الأذان في آية سورة التوبة قد لا يخلو ـ والله العالم ـ من علاقة بآية سورة الحجّ، آية التأسيس لفريضة الحج المباركة: ﴿وَأَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَ عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾. التي جاءت بعد أن أمرت السماء نبيّها إبراهيم عليه السلام، وأوصته وابنه إسماعيل معه، ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لاَّ تُشْرِكْ بِى شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَالْقَآئِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.﴿وَعَهِدْنَآ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، فكان الأمر برفض الشرك والنهي عنه، وبتطهير البيت وإعداده لمن يردونه ويأتونه مِن كُلِّ فَجٍّ عَميق للعبادة وأداء فريضة الحج، التي أمر بإعلانها وأذِّن... فإذا بالآية الثالثة من التوبة تبدأ أيضاً بالأذان: ﴿وأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَ رَسُولِهِ ...﴾، ولكنّ هذه المرّة بأذان من الله تعالى ورسوله، بإعلان يتضمن شدّةً وحدّةً وقوّةً؛ ليُنهي كلَّ

١. تفسير جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري (ت٣١٠ هـ)؛ وتفسير مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي (ت٥٤٨ هـ).

٢. سورة التوبة: ٣ و ١٢٩؛ مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع، لجلال الدين السيوطي: ٥٢.

أثـر وفعل للـشرك وأمـان للمشركين، وليُعلـن البراءة مـن أي علاقة وعهد بهـم، وليضع حـدًّا بين المسـلمين وبـين المشركين، فـكان إعلانـاً لانتصار الإسـلام ورسـوله، وإظهاراً لعـزِّ المسـلمين وذلِّ المشركـين؛ بعـد معاناة قاسـية ومعـارك عديـدة تحمّلها السـابقون من المهاجريـن والأنصـار، ومواقف جليلـة وجهود كبـيرة قدموها، فكلا الموقفـين، الأذانين؛ أذان إبراهيـم عليه السلام وأذان محمد صلى الله عليه وآله شـكّلا مرحلتـين مهمّتين من تاريخ الأديـان، لا ينفكّان أبـداً، وكلٌّ منهـما يُكمل الآخر، ويدعـو إليه...

هـذه إشـارة موجزة للمناسـبة بين الآيتـين والأذانين؛ لننتقـل لمعرفة المناسـبة بين الآية الثالثـة والآيـة الأولى مـن سـورة التوبـة: ﴿بَـرَاءَةٌ﴾ لغةً: هـي مصدر عـلى فَعالة كالشَّـناءة والدّنـاءة، تقـول: برئـت مـن الـشيء أبـرأ بـراءة فأنـا منـه بـريء، إذا أزلتـه عن نفسـك، وقطعت سـبب مـا بينـك وبينه...

والأذان لغـةً: هـو بمعنـى الإيـذان، وهو الإعلام والإشـهار، كـما أنَّ الأمـان والعطاء بمعنـى الإيـمان والإعطاء.

وإعراباً: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

و﴿بَـرَآءَةٌ: ﴾مصـدر عـلى فَعالة كالشَّـناءة والدّناءة، تقـول: برئت من الشيء أبـرأ براءةً فأنـا منـه بـريء، إذا أزلتـه عن نفسـك، وقطعت سـبب مـا بينك وبينـه... ويقـال: برئت مـن فلان أبـرأ بـراءةً، أي انقطعت بيننـا العصمة...

قـال السـمين الحلبـي: الجمهـورُ عـلى رفـع بـراءة وفيـه وجهـان، أحدهمـا: أنهـا رفعٌ بالابتـداء، والخـبرُ قولُـه: إلى الذيـن. وجـاز الابتـداءُ بالنكـرة لأنهـا تخصَّصَـتْ بالوصفِ بالجـارِّ بعدهـا. والثاني: أنها خبرُ ابتـداءٍ مضمر أي: هـذه الآياتُ براءةٌ. ويجـوز في: من الله أن يكـون متعلقـاً بنفس بـراءة لأنها مصدرٌ، وهذه المـادةُ تتعدَّى بـ «مِنْ» تقـول: بَرئت مِنْ فـلانٍ أَبْـرَأُ بَـراءة أي: انقطعت العُصْبَـةُ بيننا. وعلى هذا فيجـوز أن يكونَ المسَـوِّغُ للابتداء بالنكـرة في الوجـه الأول هـذا. و «إلى الذين» متعلـقٌ بمحذوف عـلى الأول لوقوعِه خبراً،

وبنفس «بَـراءة» عـلى الثاني. ويقـال: بَرِئـتُ وبَرَأت مـن الدين بالكـسر والفتح...

وقـرأ عيسـى بـن عمـر «بـراءةً» بالنصب عـلى إضمار فعـل أي: اسـمعوا بـراءةً. وقال ابـن عطيـة: أي، الزمـوا بـراءةً أو على تقديـر التزموا بـراءةً، وفيـه معنى الإِغـراء...

قولـه تعـالى: «وَأَذَانٌ»: رفـع بالابتـداء، و «مِـن الله»: إمَّـا صفـةٌ أو متعلـقٌ بـه. و «إلى النـاس» الخبر. ويجـوز أن يكونَ خبرَ مبتـدأ محذوفٍ أي: وهـذا إعلامٌ، والجـارّان متعلقان بـه كـما تقـدَّم في «بـراءة»... هذا ما ذكـره السـمين الحلبـي (ت٧٥٦ هـ) في تفسـيره القيم الـدرّ المصون بخصـوص الآيتـين المذكورتين.

أمّا بخصوص باقي إعراب الآية الأولى والثانية فهو:

براءة خبر لمبتدإ محذوف؛ أي هذه براءة.

«مِـنَ الله»: صفـة لبراءة فهي لابتـداء الغاية، متعلقـة بمحذوف صفة لبراءة، وليسـت متعلقـة بالـبراءة كـما في قولـك: برئت مـن الذنـب والديـن، والمعنى: هـذه بـراءة واصلة مـن الله ورسـوله... ويجـوز أن تكـون بـراءة مبتـدأ؛ وسـاغ الابتـداء بهـا؛ لتخصيصهـا بالصفـة وإلى الذيـن خبرها... ومـن المشركين: حال... «وَرَسُـولِهِ»: عطـف. «إِلَى الَّذِينَ»: اسـم موصـول في محـل جـر، والجـار والمجـرور متعلقـان بمحـذوف صفـة. «عاهَدْتُمْ»: فعـل مـاض، والتـاء ضمـير متصـل في محـل رفع فاعـل، والجملـة صلـة الموصـول. «مِنَ الْمُشْرِكِـينَ»: متعلقـان بالفعـل، حال.

وجملـة هذه بـراءة ابتدائية لا محـل لهـا.﴿وأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُـولِهِ إِلَى النَّاسِ يَـوْمَ الْحَجِّ الأَكْـبَرِ أَنَّ اللهَ بَـرِىءٌ مِّـنَ الْمُشْرِكِـينَ وَرَسُـولُهُ فَـإِنْ تُبْتُـمْ فَهُـوَ خَـيْرٌ لَّـكُـمْ وَإِن تَوَلَّيْتُـمْ فَاعْلَمُـواْ أَنَّكُـمْ غَـيْرُ مُعْجِـزِى اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِيـنَ كَفَرُواْ بِعَـذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

«وأَذانٌ»: ارتفـاع أذان كارتفـاع بـراءة عـلى الوجهـين، فهو خبر لمبتدأ محـذوف تقديره هـذا أذان، أو هـو مبتدأ وإلى النـاس خبرها...

«مِـنَ اللهِ»: صفـة أو متعلق بـه، أو متعلقان بالخبر. «وَرَسُـولِهِ»: عطـف. «إِلَى النَّاسِ»:

الخبر، أو متعلقـان بالخبر.

يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَر «يَوْمَ»: متعلق بما تعلق به إلى الناس.

«الْحَجِّ»: مضاف إليه

«الْأَكْبَر»: صفة.

«أَنَّ اللهَ بَـرِيءٌ» بفتـح همـزة أنَّ، وفيـه وجهان: أحدهمـا: خبر أذان، والثـاني: هو صفة، أي وأذان كائـن بالـبراءة. وقيـل التقديـر: وإعـلام مـن الله بالـبراءة، فالبـاء متعلقة بنفس المصـدر، وأنّ واسـمها وخبرهـا ومـن المشركين جـار ومجرور متعلقـان ببريء.

«ورسوله»؛ فيه أوجه:

أحدهـا: أنّـه مبتـدأ والخـبر محـذوف، أي ورسـوله بـريء منهـم، وإنّما حـذف لدلالة الأول عليـه وهـذا أصـحُّ الأوجـه. وقيـل: هـو معطوف عـلى محـل اسـم أنّ، أو معطوف عـلى الضمـير المسـتتر في الخبر.

الطـبري: يقـول تعـالى ذكره: وإعـلام من الله ورسـوله إلى النـاس يوم الحـجّ الأكبر... «وأذانٌ مِـنَ اللهِ ورَسُـولِهِ»: إعـلام مـن الله ورسـوله. ورفـع قولـه: «وأذانٌ مِـنَ الله» عطفاً عـلى قولـه: «بَـرَاءَةٌ مِـنَ الله» كأنّـه قال: هذه بـراءة مـن الله ورسـوله، وأذان من الله.

قـال الطـبرسي بعـد أن ذكـر أنَّ الأذان الأعـلام: يقـال: أذنتـه بكـذا فـأذن أي أعلمته فعلـم. وقيـل: إنّ أصلـه مـن النـداء الذي يسـمع بـالأذنِ ومعنـاه أوقعـه في أذنـه، وتأذَّن بمعنـى آذن كـما يقـال: تيقَّـن وأيقن.

وأذان عطـف عـلى بـراءة عـن الزجـاج. وقيـل: إنَّ تقديـره عليكـم أذان؛ لأنّ فيـه معنى الأمـر ...

يقـول: ثـم بيَّن سـبحانه أنّـه يجب إعـلام المشركين بـبراءة منهم لئلا ينسـبوا المسـلمين إلى الغـدر، فقـال: ﴿وأَذَانٌ مِّـنَ اللهِ وَرَسُـولِهِ إِلَى النَّاس﴾ معناه وإعـلام، وفيه معنى الأمر

أي أذنوا الناس يعني أهل العهد. وقيل: المراد بالناس المؤمن والمشرك؛ لأنَّ الكل داخلون في هذا الإعلام. وقوله: «إلى الناس» أي للناس، يقال: هذا إعلام لك وإليك، وأذان عطف على براءة ...﴿أَنَّ اللّٰهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي من عهد المشركين فحذف المضاف «ورسوله» معناه ورسوله أيضاً بريء منه.

وقيل: إنَّ البراءة الأولى لنقض العهد، والبراءة الثانية؛ لقطع الموالاة والإحسان فليس بتكرار.

قال النسفي:﴿وأَذَانٌ مِّنَ اللّٰهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾ ارتفاعه كارتفاع «بَرَاءةٌ» على الوجهين، ثمّ الجملة معطوفة على مثلها، والأذان بمعنى الإيذان وهو الإعلام، كما أنَّ الأمان والعطاء بمعنى الإيمان والإعطاء، والفرق بين الجملة الأولى والثانية أنَّ الأولى إخبار بثبوت البراءة، والثانية إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت. وإنّما علّقت البراءة بالذين عوهدوا من المشركين وعلّق الأذان بالناس؛ لأنَّ البراءة مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم، وأمّا الأذان فعام لجميع الناس من عاهد ومن لم يعاهد، ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث.

﴿يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ﴾ يوم عرفة؛ لأنّ الوقوف بعرفة معظم أفعال الحجّ أو يوم النحر لأنّ فيه تمام الحج من الطواف، والنحر، والحلق، والرمي. ووصف الحج بالأكبر، لأنّ العمرة تسمى الحج الأصغر.[1]

إذن فرفع قوله:﴿وأَذَانٌ مِّنَ اللّٰهِ﴾ وهو إعراباً معطوف على: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللّٰهِ﴾ كأنّه قال: هذه براءة من الله ورسوله، وأذان من الله ورسوله؛ ولأنَّ «وأَذَانٌ» بمعنى الإيذان، وهو الإعلام والإشهار لغةً، فهو يشكل إعلاماً عاماً من الله تعالى ورسوله ﷺ «إِلَى ٱلنَّاسِ»، أي أنّه إيذان من الله إلى كافة الناس غير مختصّ بقوم دون قوم، أي بما فيهم أهل العهود، فوجوب الإعلام في هذه الآية لجميع الناس، وهو من الله تعالى ورسوله ﷺ

١. تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي: الآيات.

بانقطاع العصمة منهما وانقضاء عهدهما، بيد أنّ الآية الأولى متضمّنة للإخبار بالبراءة إلى المعاهدين خاصة، ولما أعلمهم بالبراءة أعلمهم بالوقت الذي يؤذن بها فيه، وهو «يَوْمَ الْحَجِّ» ظرف لقوله: «وأذان». ولعلَّ هذا المصداق من المناسبة، يتجلّى عبر هذه المقابلة بين آيتي: «بَرَآءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ» وإضافة براءة إلى الله ورسوله دُون المسلمين، فهو تشريع.

«وأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ...».

قال ابن عاشور: وإضافة الأذان إلى الله ورسوله دُون المسلمين؛ لأنّه تشريع وحكم في مصالح الأمّة، فلا يكون إلّا من الله على لسان رسوله صلى الله عليه وآله وهذا أمر للمسلمين بأن يأذنوا المشركين بهذه البراءة، لئلا يكونوا غادرين...[1]

لتختم الثانية بالبراءة أيضاً ﴿أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾.

هذه المقابلة بين مطلعي الآيتين من سورة التوبة: الأولى؛ وهي إخبار بثبوت البراءة، والثالثة؛ وهي إخبار بوجوب الإعلام بها، تدعو إلى التأمل والدقّة في العلاقة والترابط بينهما، وأنَّ حصول هذه المقابلة ليس مصادفة، بل هو من الحكمة بدرجة عالية... ولعلَّ هذا الأمر الذي يُعدُّ ارتباطاً وعلاقةً وهو من (المناسبة) بمكان... لم يقف عند هذا الحدّ، بل تستمر العلاقة حتى الآية ٢٨ من سورة التوبة، ولما بعدها: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـذَا﴾، وقد أشار الشيخ الطبرسي إلى بعض هذا الترابط أو الاتصال بين آيات من هذه السورة في أربعة مواضع في فقرة (النظم).[2]

العلامة الطباطبائي: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

والآية بالنسبة إلى الآيات التالية كالعنوان المصدر به الكلام المشير إلى خلاصة

١. التحرير والتنوير: الآيات.

٢. مجمع البيان، للشيخ الطبرسي سورة التوبة: الآيات١٤ـ ١٥ ـ١٦، ١١٥ـ١١٦، ١١٧ـ١١٨.

القـول عـلى نهـج سـائر السـور المفصلـة التي تشـير الآيـة والآيتـان مـن أولها عـلى إجمال الغـرض المسرود لأجـل بيانـه آياتها.[1]

البقاعـي: ولمّـا أنـزل الـبراءة أمـر بالإعـلام بهـا في المجمـع الأعظـم ليقطـع الحجج، فقـال عاطفـاً ظهـرة الجملـة إلى مضمونهـا: الإخبـار بوجـوب الإعـلام بما ثبـت بالجملة الأولى المعطوفـة عليهـا من الـبراءة: «وَأَذَانٌ» أي وهـذا إعلام وإعلان واقـع وواصل «مِنَ اللهِ» أي المحيـط بجميـع صفـات العظمـة، «وَرَسُـولِهِ» أي الذي عظمته مـن عظمته، فلا يوجهـه إلى شيء إلّا أعـلاه عليـه؛ ولمّـا كان المقصـود الإبـلاغ الـذي هو وظيفة الرسـول عـداه بحـرف الانتهاء فقـال: «إِلَى النَّـاس» أي كلهم من أهل الـبراءة وغيرهم «يَـوْمَ الحَجِّ الأكبَر».[2]

وممّـا جـاء في تفسـير المنـار: ﴿وأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُـولِهِ إِلَى النَّـاس يَوْمَ الْحَـجِّ الأَكْـبَر أَنَّ اللهَ بَـرِيءٌ مِّـنَ الْمُشْرِكِـينَ وَرَسُـولُهُ﴾. هـذه الجملـة معطوفة على مـا قبلها مصرّحة بالتبليـغ الصريـح الجهري العـام للبراءة مـن المشركين أي مـن عهودهم وسـائر خرافات شركهـم وضلالاتـه، ومبينـة لوقتـه الـذي لا يسـهل تعميمـه إلّا فيـه، وهـو يـوم الحـجّ الأكـبر. وفي تعيينـه خـلاف سـيذكر مع ترجيـح أنّه عيـد النحر الـذي تنتهي فيـه فرائض الحـج وأركانـه ويجتمـع الحاج فيـه لإتمـام واجبات المناسـك وسـننها في منى.

والأذان: النـداء الـذي يطـرق الأذان بالإعـلام، بـما ينبغـي أن يعلمه الخـاص والعام، وهو اسـم مـن التأذين، قال تعـالى: ﴿أَذَّنَ مُـؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـارِقُونَ﴾. سـورة يوسـف: ٧٠. ومنـه الأذان للصـلاة. وأذّن بها أعلم، وآذنـه بالشيء إيذاناً أعلمـه به. وأذّن بالـشيء (كعلم) علمـه، وأذن له (كتعب) اسـتمع.

وأعـاد التصريـح في هـذا الأذان بكونـه مـن الله باسـم الـذات، ومـن رسـوله بصفـة

١. تفسير الميزان: الآية.

٢. تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي (ت٨٨٥ هـ).

التبليغ الذي تقتضيه الرسالة كما صرّح بها في البراءة، وصرّح في الموضعين بذكر المشركين بعنوان الشرك ووصفه، وذلك لتأكيد هذا الحكم وتأكيد تبليغه من جميع وجوهه.

ثمّ أكّد ما يجب أن يبلغوه من ذلك بما أوجب أن يخاطبوا به من غير تأخير بقوله: «وإِنْ تَوَلَّيْتُمْ» أي قولوا لهم: فإن تبتم بالرجوع عن شرككم وما زيّنه لكم من الخيانة والغدر بنقض العهود، وقبلتم هداية الإسلام «فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ» في الدنيا والآخرة؛ لأنّ هداية الإسلام هي السبب لسعادتها «وإِنْ تَوَلَّيْتُمْ»، أي أعرضتم عن إجابة هذه الدعوة إلى التوبة «فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ»، أي غير فائتيه بأن تفلتوا من حكم سننه ووعده لرسله والمؤمنين بالنصر.

ابن عاشور: وإضافة الأذان إلى الله ورسوله دُون المسلمين؛ لأنّه تشريع وحكم في مصالح الأمّة، فلا يكون إلّا من الله على لسان رسوله ﷺ وهذا أمر للمسلمين بأن يأذنوا المشركين بهذه البراءة، لئلا يكونوا غادرين. لقد بُلّغت سورة «بَرَآءَةٌ» عبر آية «وأَذَانٌ...» لتريهم ـ على مسمع ومرأى من الناس في يوم تشهده جموعهم؛ حجَّ فيه المشركون والمسلمون ولم يحج بعده مشرك ـ موقفاً آخر لا لين فيه ولا هوادة؛ يُطيح بكبريائهم وعنجهيتهم ومراوغتهم ومغالطتهم وخداعهم ومكرهم، واستخفافهم بالعهود وعدم احترامهم لها، بل ونقضها، ولتؤسّس هذه الآيات علاقات جديدة ونهائية بالآخرين... ولأهمية هذه المرحلة وخطورتها نرى أنَّ البراءة ذكرت في الآيتين، وكلا البراءتين مصدرهما من الله ورسوله... الأولى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

والثالثة: ﴿وأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاس يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَر أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾، ممّا أثارت الانتباه والتساؤل، وجعلت بعض المفسرين ينفي كونه تكراراً، ويُعلّله، فهذا الشيخ الطبرسي ينفي التكرار لأنَّ البراءة الأولى لنقض

العهـد، والـبراءة الثانية لقطـع الموالاة والإحسـان، فليـس بتكرار.

هـذا ولقائـل أن يقول، والـكلام للفخر الـرازي: لا فرق بـين قوله تعالى: ﴿بَـرَاءَةٌ مّنَ اللهِ وَرَسُـولِهِ إِلَى الَّذِيـنَ عَاهَدْتُمْ مّـنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في الآية الأولى، وبـين قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللهَ بَـرِىء مّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُـولُهُ﴾ في الآية الثالثة.

فـما الفائـدة في هـذا التكريـر؟ وهنـا يُجيـب الفخـر الـرازي بقولـه: الجـواب عنـه من وجوه:

الوجـه الأول: أنَّ المقصـود مـن الـكلام الأول الإخبار بثبـوت الـبراءة، والمقصود من هـذا الـكلام إعـلام جميع النـاس بما حصـل وثبت.

والوجـه الثـاني: أنَّ المـراد مـن الـكلام الأول الـبراءة مـن العهـد، ومـن الـكلام الثاني الـبراءة التـي هـي نقيـض المـوالاة الجاريـة مجـرى الزجـر والوعيـد، والـذي يـدلّ عـلى حصـول هـذا الفـرق أنَّ في البراءة الأولى بـرىء إليهم، وفي الثانية: بـرىء منهم، والمقصود أنّـه تعـالى أمـر في آخر سـورة الأنفال المسـلمين بأن يـوالي بعضهم بعضـاً، ونبّه بـه على أنّه يجـب عليهـم أن لا يوالوا الكفـار وأن يتبرؤا منهم، فهاهنـا بيّن أنّه تعالى كـما يتولّى المؤمنين فهـو يتـبرأ من المشركـين ويذمهم ويلعنهـم، وكذلك الرسـول، ولذلك أتبعه بذكـر التوبة المزيلـة للبراءة.

والوجـه الثالـث: في الفـرق أنّـه تعـالى في الـكلام الأول أظهـر الـبراءة مـن المشركـين الذيـن عاهـدوا ونقضـوا العهـد. وفي هـذه الآيـة أظهر الـبراءة مـن المشركين مـن غير أن وصفهـم بوصـف معـين، تنبيهـاً عـلى أنَّ الموجـب لهـذه الـبراءة كفرهـم وشركهم.

سـيد قطـب: اقتضـت أن تفتتح السـورة بهـذا الإعـلان العام بـبراءة الله ورسـوله من المشركـين، وأن يتكـرر إعـلان البراءةمن الله ورسـوله بعد آيـة واحدة بنفـس القوة ونفس النغمـة العاليـة؛ حتـى لا يبقـى لقلـب مؤمـن أن يبقـى عـلى صلـة مع قـوم يـبرأ الله منهم ويـبرأ رسـوله. ﴿بَـرَآءَةٌ مِّـنَ اللهِ وَرَسُـولِهِ إِلَى الَّذِيـنَ عَاهَدْتُمْ مِّـنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿وأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾.

وهبة الزحيلي: فليس بين البراءتين تكرار؛ لأنَّ البراءة الأولى مختصة بالمعاهدين والناكثين العهد منهم، وأما الأذان بالبراءة فعام لجميع الناس؛ من عاهد ومن لم يعاهد، ومن نكث ومن لم ينكث.

وأيضاً الشعراوي في خواطره يُجيب عن هذا وأمور أخرى، بعد أن يذكر ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾: ما يقوله بعض الناس من أنه ما دام الله تعالى قد قال فلماذا يُعيد سبحانه وتعالى: ﴿أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾؟ ويجيب قائلاً: إنَّ البراءة جاءت إعلاماً بالمبدإ، والأذان جاء لإبلاغ البراءة، و «أذانٌ» معناها إعلام يبلغ للناس كلّهم، تماماً كأذان الصلاة، فهو إعلام للناس بدخول وقت الصلاة. والأذان مأخوذ من الأذن؛ لأنّ الإنسان حين يعلم الناس بشيء لا بدّ أن يخطب فيهم فيسمعون كلامه بآذانهم، ولذلك تجد الأذن هي الوسيلة الأولى للإدراك، فقبل أن ترى تسمع، وقبل أن تتكلم لا بدّ أن تسمع، فإن لم تسمع مَنْ يتكلم لا تقدر أنت على الكلام، ولذلك يقول الحق جلَّ جلاله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ...﴾. وإذا كان الذي بَلَّغَ الأذان من الله ورسوله إلى كلّ الناس يوم الحجّ هو علي بن أبي طالب فكيف يقال: ﴿وأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾؟

نقول: إنَّ الله تعالى أعلمَ رسولَه، والرسول صلى الله عليه وآله أعلمَ عليًّا، وعليٌّ هو الذي نادى وبلَّغ، لكن هناك من يقول: إن الله طلب البلاغ إلى الناس مع أنَّ البراءة كانت للمشركين. ونقول: إنّ الإعلام كان لكلّ الناس للمؤمن وغير المؤمن حتى يعرف جميع الناس موقفهم، فيعرف المؤمن أنّ العهد قد قُطِعَ، ويعرف غير المؤمن أنّ العهد قد قطع، فلا يؤخذ أحد على غِرَّةٍ، وليرتب كلّ إنسان موقفه في ضوء البلاغ الصادر من الله عزَّ وجلَّ، والله سبحانه وتعالى أراد اعتدال الميزان بأيدي رسول الله صلى الله عليه وآله؛ لذلك فهو لا يخاطب المؤمنين وحدهم، بل كان الخطاب للعالم كلّه...

وقولـه سـبحانه وتعالى: ﴿وأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُـولِهِ إِلَى النَّاس يَـوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَر...﴾، وهـذا القـول فيـه تعميـم في المـكان وتعميم في المكـين، فيوم الحـج يجتمع النـاس كلهم في مـكان واحـد... وإنّ الإعـلان قالـه سـيدنا عـلي بـن أبي طالب عليه السلام يـوم عرفـة، وبلغ هذا الإعـلام كلّ مـن سـمعه إلى غـيره، والآيـة الكريمـة تقـول: ﴿وأَذَانٌ مِّـنَ اللهِ ورَسُـولِهِ إِلَى النَّـاس يَـوْمَ الْحَـجِّ الأَكْـبَرِ أَنَّ اللهَ بَـرِيءٌ مِّـنَ الْمُشْرِكِـينَ وَرَسُـولُهُ﴾، وهـذا إذن مـن الله لرسـوله صلى الله عليه وآله، ومـن رسـوله إلى عـليٍّ كـرم الله وجهـه، ومن عـليٍّ للمؤمنين، ومـن المؤمنين مـن سـمع لمن لم يسـمع، أنّ الله بريء من المشركـين، وكان هذا إعلاناً بالقطيعـة، ولكنّ الله برحمتـه لا يغلـق الباب أمام عبـاده أبداً، ولذلك يقول: ﴿فَـإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَـيْرٌ لَّكُمْ...﴾. أي فتـح لهـم باب التوبة فإن تابـوا عفا الله عنهـم، وإن لم يتوبوا فالقول الفصـل هو: ﴿وإِنْ تَوَلَّيْتُـمْ فَاعْلَمُـواْ أَنَّكُـمْ غَيْرُ مُعْجِـزِى اللهِ وبَشِّرِ الَّذِيـنَ كَفَرُواْ بعَـذَابٍ أَلِيمٍ﴾.[1]

فمـمّا لا شـكّ فيـه أنَّ سـورة التوبـة، وعـلى الأقـل الآيـات مـن الأولى حتـى الثامنـة والعشريـن بنسـقها المتضامـن والمترابـط جـاءت بشـكل كان للهـدف مـن ورائـه تنظيـم أوضـاع وعلاقـات تلـك المرحلـة بما يتناسـب وتمكّن الإسـلام والمسـلمين من الإمسـاك بالوجـود الاجتماعـي والسـياسي، فـكان مـن حقّـه أن يضـع حلـولاً وبنـاء علاقـات مع المكونـات التـي مـا زال لهـا وجودهـا في مكـة ومـا حولهـا وهـم المشركـون، فضـلاً عـن الآيـات الأُخـر التي تخـصُّ أهل الكتـاب والمنافقين، وتعتنـي بالبيئة والحاضنة الإسـلامية والمسـلمين...

ومـن جملـة مـا قاله سـيد قطب: هـذه الآيـات وما بعدهـا إلى الآيـة الثامنـة والعشرين نزلـت تحـدد العلاقـات النهائيـة بـين المجتمـع الإسـلامي الـذي اسـتقر وجـوده

١. تفسـير مجمـع البيـان في تفسـير القـرآن، الطـبرسي (ت ٥٤٨ هــ)؛ تفسـير مفاتيـح الغيـب، التفسـير الكبـير، الـرازي (ت ٦٠٦ هــ)؛ وفي ظـلال القـرآن، لسـيد قطـب؛ تفسـير المنـير، للدكتـور وهبـة الزحيـلي ٥: ٤٤٩ سـورة التوبـة؛ تفسـير خواطـر، محمـد متـولي الشـعراوي (ت١٤١٩ هــ): الآيات.

في المدينة وفي الجزيرة العربية ـ بصفة عامة ـ وبين بقية المشركين في الجزيرة الذين لم يدخلوا في هذا الدين... سواء منهم: من كان له عهد مع رسول الله ﷺ فنقضه، حينما لاح له أنّ مواجهة المسلمين للروم حين توجهوا لمقابلتهم في تبوك؛ ستكون هي القاضية على الإسلام وأهله، أو على الأقل ستضعف من شوكة المسلمين وتهدّ من قوتهم...

ومن لم يكن له عهد، ولكنّه لم يتعرض للمسلمين من قبل بسوء...

ومن كان له عهد ـ موقوت أو غير موقوت ـ فحافظ على عهده، ولم ينقص المسلمين شيئاً، ولم يظاهر عليهم أحداً... فهؤلاء جميعاً نزلت هذه الآيات وما بعدها؛ لتحدد العلاقات النهائية بينهم وبين المجتمع المسلم...

وبالتالي فإنَّ هذا المقطع يتضمن إنهاء العهود التي كانت قائمة بين المسلمين والمشركين حتى ذلك الحين، سواء كان هذا الإنهاء بعد أربعة أشهر لمن كانت عهودهم مطلقة، أو الناكثين لعهودهم؛ أو كان بعد انتهاء الأجل لمن كانت لهم عهود مقيدة، ولم ينقصوا المسلمين شيئاً ولم يظاهروا عليهم أحداً...

فعلى الجملة كانت النتيجة الأخيرة هي إنهاء العهود مع المشركين في الجزيرة العربية؛ وإنهاء مبدأ التعاقد أصلاً مع المشركين بعد ذلك، بالبراءة المطلقة من المشركين، وباستنكار أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله... وأسلوب هذه الآيات وإيقاع التعبير فيها يأخذ شكل الإعلان العام، ورنينه العالي! فيتناسق أسلوب التعبير وإيقاعه مع موضوعه والجوّ الذي يحيط بهذا الموضوع على طريقة القرآن في التعبير...[1]

أقول: لعلَّ هذا ـ والله العالم بمراده ـ هو حرب بلا هوادة على الشرك وأهله عبر البراءة وعبر الأذان المبارك يوم الحج الأكبر، وهذا الأذان وتلك البراءة باختيار من الله تعالى لا فقط نصوصاً ومضامين، بل وقتاً ومكاناً وشخصاً مبلغاً؛

١. في ظلال القرآن، سيد قطب: سورة التوبة.

فأمّا الموعد وقتاً ومكاناً الذي يُنذر به المشركون، فهو ما عيَّنته السماءُ، إنَّه ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ﴾ ذلك الميقات الجامع؛ لإعلان البراءة، وهكذا نرى أن ذكر ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ﴾ في هذا الموضع جاء في سياق البراءة من المشركين، وبيان أحكام العهود معهم، دون أن يُغلق باب التوبة، فإن لم يتوبوا فقتالهم وحربهم. ولا يخفى ما تحمله فريضة الحج في أثناء ذكر ذلك من أنَّ منسك الحجّ هو حرب على المشركين وشركهم، هو إنهاءٌ لجاهليتهم ولما تركته من آثار في الجزيرة العربية وما حولها، وأنّ الحجَّ دعوة صريحة للتوحيد، وأنَّ تمام التوحيد في الحجّ وأفعاله... وأنَّ آية الأذان في ميقاتها المقرر من قبل السماء ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ﴾ كانت ـ ولا شك ـ تخليصاً للبيت الحرام من آثار الجاهلية التي أصابته عبر القرون، فلوّثته بعد تطهيره، وإعلاماً بانتهاء مظاهر الانحراف والشرك التي دبَّت في مناسك الحج، وما أحدثوه في هذه الشعيرة المباركة من زيادة وتبديل وتغيير، فهم إضافةً لشركهم كانوا مغيّرين ومبدلين فيما شرعته السماء وأنزلته على أبيهم إبراهيم عليه السلام... وهكذا يلتقي سياق النصِّ والحكمة منه في هذه الآيات على إلغاء الشرك والجاهلية التي تغذيه، سواء أكان مادياً أم معنوياً، صنماً كان أو حجراً، شجراً أو حيواناً أو بشراً... وأن يُدخل الناس في عبادته تعالى وحده لاشريك له.

هذا، ويقول سيد قطب: وعمّا يعنيه هذا التناسق بين هذه الآيات، وعمّا يريده تكرار البراءة في آيتين، وعمّا يهدف إليه هذا الإعلان الخطير، وعمّا يقتضيه هذا الأذان المبارك الذي افتتحت به السورة، اقتضت أن تفتتح السورة بهذا الإعلان العام ببراءة الله ورسوله من المشركين، وأن يتكرر إعلان البراءة من الله ورسوله بعد آية واحدة بنفس القوّة ونفس النغمة العالية، حتى لا يُبقي لقلب مؤمن أن يبقى على صلة مع قوم يبرأ اللهُ منهم ويبرأ رسولُه:

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُّمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ *وأَذَانٌ مِّنَ اللهِ

وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاس يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَر أَنَّ اللهَ بَرِىءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾.

وعنه يقول أيضاً: هذا الإعلان العام، بهذا الإيقاع العالي؛ يتضمن المبدأ العام للعلاقة بين المسلمين والمشركين في ذلك الحين في جزيرة العرب قاطبة؛ إذ كانت العهود المشار إليها هي التي كانت بين رسول الله ﷺ والمشركين في الجزيرة.

والإعلان ببراءة الله وبراءة رسوله من المشركين يحدّد موقف كلّ مسلم؛ ويوقع إيقاعاً عميقاً عنيفاً على قلب كلّ مسلم، بحيث لا يبقى بعد ذلك مراجعة ولا تردد...

ثمَّ تأتي بعد الإعلان العام والمخصّصات والشروح لهذا الإعلان:

﴿فَسِيحُواْ فِي الأَرْض أَرْبَعَةَ أَشْهُر وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزى اللهِ وأَنَّ اللهَ مُخْزى الْكَافِرِينَ﴾.

فهذا بيان للمهلة التي أجّل الله المشركين إليها... وعما يقتضيه هذا الإعلان العام عبر هذا الأذان المبارك في الآية المباركة: ﴿وأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ...﴾ من أمر، نكتفي ببعض ما ذكره سيد قطب: واقتضت تطمين المؤمنين وتخويف المشركين بأنَّ الله مخزي الكافرين، وأنَّ الذين يتولون لا يعجزون الله ولا يفلتون من عذابه: ﴿... واعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزى اللهِ وأَنَّ اللهَ مُخْزى الْكَافِرِينَ﴾... ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزى اللهِ وبَشِّر الَّذِينَ كَفَرُواْ بعَذَاب أَلِيم﴾ واقتضت استنكار أن يكون للمشركين عهدٌ عند الله وعند رسوله ـ إلّا الذين عاهدوا ثمّ استقاموا، فيستقام لهم مدة عهدهم ما استقاموا عليه ـ مع تذكير المؤمنين بأنَّ المشركين لا يرقبون فيهم عهداً، ولا يتذممون من فعلة لو أنّهم قدروا عليهم، وتصوير كفرهم، وكذبهم فيما يظهرونه لهم أحياناً من مودة بسبب قوتهم:

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَاللهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِندَ

الْمَسْجِدِ الْحَرَام فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * كَيْفَ وإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ * اشْتَرَوْاْ بآيَاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾.

واقتضت استثارة الذكريات المريرة في نفوس المسلمين... واقتضت الأمر بالمفاصلة الكاملة على أساس العقيدة، ومقاومة مشاعر القرابة والمصلحة معاً... واقتضت تذكيرهم بنصر الله لهم في مواطن كثيرة... واقتضت أخيراً تطمينهم من ناحية الرزق،...[1]

المُؤذِّنُ!

وأمّا الشخص المبلغ لمهمة إنهاء الشرك في هذه البقاع المباركة، بعد إبراهيم الخليل عليه السلام وما قام به من تطهير لها، فهو ذاك الذي حظي باختيار السماء لهذه المهمة الخطيرة دون غيره، إنّه رسول الله صلى الله عليه وآله ممثلاً بعليّ بن أبي طالب عليهما السلام مبعوثاً له حين راحت السماء تخاطب رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يؤدي عنك إلّا رجلٌ منك».

فراح صلى الله عليه وآله يُعلنها صريحةً: «لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلّا رجل من أهلي».

والتفت إلى عليٍّ عليه السلام حين أحضره فأسمعه: «إنّه لا يؤدي عنّي إلّا أنا وأنت».

وفي خبر:... «فنزل جبرئيل فقال: لا يبلغ عنك إلّا عليٌّ. فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله عليّاً عليه السلام، وأمره أن يركب ناقته العضباء، وأن يلحق أبابكر ـ بعد أن دفعها إليه أولاً ـ فيأخذ منه براءة، و يقرأها على الناس بمكة، فقال أبوبكر: أسخط؟ فقال: لا، إلّا أنّه أنزل عليه أنه لا يبلغ عنك إلّا رجل منك».

---

١. في ظلال القرآن، لسيد قطب: الآيات من سورة التوبة ١ ـ ٢٨.

وفي خبر آخر:... فرجع أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أأنزل اللهُ فيَّ شيئاً؟ قال: لا، «إنَّ الله أمرني أن لا يؤدي عنّي إلّا أنا أو رجل منّي».

فكان عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام هو ذلك الرجل الذي دفع رسول الله ﷺ براءة إليه، وهو ما أجمع عليه المفسرون ونقلة الأخبار، فقد روى عاصم بن حميد عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: «خطب علي عليه السلام الناس واخترط سيفه فقال: لا يطوفنَّ بالبيت عريان ولا يحجنّ البيت مشرك، ومن كانت له مدة فهو إلى مدته، ومن لم يكن له مدة فمدته أربعة أشهر.[1]

إنَّ هذا البيان أو الإعلان باشره الإمامُ عليٌّ عليه السلام بنفسه بأمر من رسول الله ﷺ؛ ليكون عليه السلام مؤذناً في الدنيا ومؤذناً في الآخرة، ففي المعاني بإسناده عن جابر الجعفي عن أبي جعفر محمد بن عليٍّ عليهما السلام، قال: «خطب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام بالكوفة منصرفه من النهروان، وبلغه أنَّ معاوية يسبه ويعيبه ويقتل أصحابه، فقام خطيباً، وذكر الخطبة إلى أن قال فيها: وأنا المؤذن في الدنيا والآخرة؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿... فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَّعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾. أنا ذلك المؤذن، قال: ﴿وأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ أنا ذلك الأذان».

أقول ـ والقول للعلامة الطباطبائي ـ: أي أنا المؤذن بذلك الأذان بقرينة صدر الكلام، ويشير عليه السلام به إلى قصة آيات البراءة.

وفي المجمع روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بإسناده عن محمد بن الحنفية عن عليٍّ عليه السلام أنّه قال: «أنا ذلك المؤذن». وبإسناده عن أبي صالح عن ابن عباس أنّه قال لعليٍّ عليه السلام في كتاب الله أسماء لا يعرفها الناس؛ قوله: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾. يقول: «ألا لعنة الله على الذين كذبوا بولايتي واستخفوا بحقي...».

وفي تفسير المنار: قال الآلوسي: هو على ما روي عن ابن عباس صاحب الصور عليه السلام،

١. تفسير مجمع البيان، للطبرسي: الآيات. بتلخيص.

وقيل: مالك خازن النار، وقيل: ملك من الملائكة غيرهما يأمره الله بذلك، ورواية الإمامية عن الرضا عليه السلام وابن عباس أنّه عليٌّ عليه السلام مما لم يثبت من طريق أهل السنة وبعيد عن هذا الإمام أن يكون مؤذناً وهو إذ ذاك في حظائر القدس. وأقول ـ والقول لصاحب المنار ـ: إنَّ واضعي كتب الجرح والتعديل لرواة الآثار لم يضعوها على قواعد المذاهب وقد كان في أئمتهم من يعد من شيعة عليّ وآله كعبد الرزاق والحاكم، وما منهم أحد إلّا وقد عدل كثيراً من الشيعة في روايتهم، فإذا ثبتت هذه الرواية بسند صحيح قبلناها، ولا نرى كونه في حظائر القدس مانعاً منها، ولو كنّا نعقل لإسناد هذا التأذين إليه عليه السلام وجهه معنى يعد به فضيلة أو مثوبة عند الله تعالى لقبلنا الرواية بما دون السند الصحيح ما لم يكن موضوعاً أو معارضاً برواية أقوى سنداً أو أصح متناً.

وقال السيد العلامة: ولقد أجاد فيما أفاد...[1]

إشارة أخيرة:

ولنا أخيراً أن نُشير إلى العلاقة والاقتران بين آيات الحجِّ وآيات القتال، فإضافة إلى ما ذكرناه في الحلقة الأولى عن آيات الحج في سورة البقرة هناك موضوع آخر عن آيات الحجّ واقترانها بآيات القتال التي تأتي بعدها مباشرةً في سورة البقرة، فآيات الحجّ تبدأ بالآية ١٨٩: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا واتقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وبعد فاصلة قرآنيّة تشكّل مقطعاً من آيات تتحدث عن القتال تبدأ من الآية ١٩٠ وتنتهي بالآية ١٩٥: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ

١. تفسير الميزان، للعلامة الطباطبائي ٨: ١٤٢ ـ ١٤٤؛ وفيه كلام طويل حول هذه المسألة وما قاله كلٌّ من الآلوسي، وصاحب تفسير المنار...؛ تفسير روح المعاني، للآلوسي؛ وتفسير المنار، لمحمد رشيد بن علي رضا؛ وتفسير مجمع البيان، للشيخ الطبرسي، سورة الأعراف: ٤٤.

لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلّا عَلَى الظَّالِمِينَ * الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ * وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

يأتي مقطع آخر طويل يتحدث فيه التنزيل العزيز عن الحجّ مرّةً أُخرى؛ يبدأ من الآية١٩٥ حتى الآية٢٠٣ .

﴿وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنكُم مَّريضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَام أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّام فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَام وَاتقُواْ اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ*الحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يا أُوْلِي الأَلْبَابِ*لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَام وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنْتُمْ مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ* ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ*فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاس مَن يَقُولُ رَبَّنَآ آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا

لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ *ومِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّار*أولَـئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ *وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّام مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْن فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُوآ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

هذا في سورة البقرة، وقد توسط القتال مقطعي الحجِّ، وكذا الأمر في سورة الحجِّ، فبعد أن ذكر التنزيل العزيز الذين كفروا ومؤامرة صدّهم في الآية:٢٥.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبيل اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَام الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاس سَوَآءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْم نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيم﴾.

وبعد أن ذكر نبيّه إبراهيم عليه السلام، وقد بوّأه مكان البيت وتطهيره:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَالْقَآئِمِينَ وَالرُّكَّع السُّجُودِ﴾.

بدأ بذكر أذان الحج ومنافعه وأحكامه وآدابه الأخرى:

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِر يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيق*لِّيَشْهَدُواْ مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّام مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَام فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ الْبَآئِسَ الْفَقِيرَ*ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِالْبَيْتِ الْعَتِيق*ذلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُواْ قَوْلَ الزُّور*حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَان سَحِيق * ذلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ*لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَل مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيق*وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِّيَذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ

مِّـن بَهِيمَةِ الأَنْعَام فَإِلَهُكُمْ إِلـهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُواْ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِـينَ* الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَـتْ قُلُوبُهُـمْ وَالصَّابِرِيـنَ عَلَى مَـآ أَصَابَهُـمْ وَالْمُقِيـمِي الصَّلَوةِ وَمِمَّـا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ* وَالْبُـدْنَ جَعَلْنَاهَـا لَكُـمْ مِّـن شَـعَآئِرِ اللّهِ لَكُـمْ فِيهَا خَـيْرٌ فَاذْكُرُواْ اسْـمَ اللّهِ عَلَيْهَـا صَـوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَـتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَـا وَأَطْعِمُواْ الْقَانِـعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذلِكَ سَـخَّرْنَاهَا لَكُـمْ لَعَلَّكُـمْ تَشْـكُرُونَ* لَن يَنَـالَ اللّهَ لُحُومُهَـا وَلاَ دِمَآؤُهَـا وَلَكِـنْ يَنَـالُهُ التَّقْـوَى مِنكُـمْ كَذلِكَ سَـخَّرَهَا لَكُـمْ لِتُكَـبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُـمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وبعـد كل هـذا جـاء حديثه مبـاشرةً في مقطع من الآيـة٣٨ حتى الآيـة٤١ وقد تضمّن أولاً دفـاع الله تعـالى عن المؤمنين، فالـكلام عن القتال وعن نـصر الله للمؤمنين وتمكينهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِـعُ عَـن الَّذِيـنَ آمَنُـوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِـبُّ كُلَّ خَوَّان كَفُـور * أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُـونَ بِأَنَّهُـمْ ظُلِمُـوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِـمْ لَقَدِيـرٌ * الَّذِيـنَ أُخْرِجُوا مِـنْ دِيَارِهِمْ بِغَـيْرِ حَـقٍ إِلّا أَنْ يَقُولُـوا رَبُّنَـا اللهُ وَلَـوْلاَ دَفْـعُ اللهِ النَّـاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْـض لَهُدِّمَتْ صَوَامِـعُ وَبِيَـعٌ وَصَلَـوَاتٌ وَمَسَـاجِدُ يُذْكَـرُ فِيهَا اسْـمُ اللهِ كَثِـيرًا وَلَيَنْـصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْـصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَـوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

وهـذا أمـر يُثـير الانتبـاه حقًّـا، ولا بـدَّ مـن أن يكـون في هـذا حكمـة، قـد يُدركها القـارئ المتدبّـر، وقـد لا يستطيع، ولكنّهـا تسـتحق الذكـر ولو بإشـارة بسـيطة، والله أعلـم بمـراده. ففـي المقطع القـرآني في سـورة البقـرة لم يواصـل التنزيل العزيـز كلامه عـن الحـجّ، الـذي ابتـدأه بالآيـة١٨٩، وإنّـما انتقـل مباشرةً للـكلام عـن القتـال في الآيات١٩٠ـ١٩٥ ليعـود مـرّة ثانية لآيات الحجّ، وبنفس الشـكل تـرى التنزيل العزيز في سـورة الحـجّ مـا إن يذكر مقطعاً لآيـات الحج بدءًا بآيـة الأذان حتى ينتقـل إلى آيات عـن القتـال بـدءًا بالآيـة٣٨. إنَّ هـذا لم يـأت إلّا وفـق حكمـة ودلالـة، ولعلَّـه ـ والله أعلـم بمـراده ـ يُشـير إلى أنَّ هناك ارتباطـاً بين فريضة الحـج المباركة والقتـال، يبدأ من

كـون كلّ منهـما يحتـاج إلى مقدمات، وهي بإيجـاز تتمثل بعدم الانشـغال بالهم الخاص، وبالاسـتعداد لتحمـل أعباء رحلـة لا تخلو من مشـاق وأتعاب ومخاطـر خاصة في تلك القـرون الماضيـة، فالانتقال والسـفر والإنفاق وتعطيـل العمل وفراق الأهـل والعزيز والحبيـب، وقـد يطـول هذا الفـراق أو يكـون فيه الأجـل، وبنظرة بسـيطة إلى رحلات الحـجّ المدوّنـة، نجـد كلَّ هـذه الآلام والمُعانـاة والمخاطـر في قطـع الصحـاري والقفار والتعـرض لقطـاع الطـرق في رحلـة قد تدوم أشـهراً عديـدةً وأياماً قاسـية، وقد يكون هنـاك الكثـير غيرها، يتحملهـا كلُّ من يريد الجهـاد والقتال في سـبيل الله تعالى وإعلاء كلمتـه والدفـاع عنهـا، وجميعهـا تحتاج إلى عـزم وصبر ومصابـرة وتحمّل مـن الحجيج بجموعهـم المهيبـة المتراصـة والقادمـة بأشـكالها وألوانهـا ولغاتهـا وأعرافهـا مـن كلّ حـدب وصـوب، مـن كلّ فـجٍّ عميـق كـما في آيـة الأذان، وأيضـاً مـن جمـوع المقاتلين وهم صـفٌّ كأنَّهـم بنيانٌ مرصـوصٌ...

فالحـجُّ بلا شـك خير مدرسـة بما يحمله من بناء للإنسـان المسـلم، وتعويـده على تحمل المسـؤولية، وتدريبـه على عـدم الانشـغال والغفلة عن تكاليفـه، وبما يتضمّنـه من تضحية بالمـال والجهـد، وإخـلاص في العمل، وتوجّـه نحو البارئ تعـالى، ورجـاء مغفرته وعفوه ورضوانـه، وهـو بهـذا يُعـدُّ المشـهد الأقرب إلى مشـاهد القتـال في سـبيل الله تعـالى؛ لأنه بمثابـة دورة تدريبيـة تتضمّن ألواناً من مفاهيـم التضحية والفداء والبـذل والعطاء؛ ابتغاءً لفضلـه تعـالى ورضـاه، ونصرةً لرسـالة الدين الحنيف، وحفظـاً لمبادئه، ودفاعـاً عن قيمه، وتوطيـداً لدعائمه، وترسـيخاً لأركانه في مختلف الأصعـدة والميادين.

إنَّ السـياق القـرآني المتوفـر على هـذا الاقتران بـين آيات فريضـة الحجّ وآيـات القتال، يسـتدعي الوقـوف طويـلاً عنده؛ لمعرفـة ما يعنيه مـن أمور وآفـاق وأبعاد، ومـا يحمله من مبررات تكمـن فيه، وحكم ينشـدها...

هـذا فيـما تيـسر لنـا مـن أحاديـث وروايـات عـن فضائـل الحـجّ أنَّه يعـدل الجهـاد في

سبيل الله تعالى: «أفضل الجهاد حجٌّ مبرورٌ» كما في حديث منسوب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وأنّه صلى الله عليه وآله لما سئل؛ أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله. قيل: ثمَّ ماذا؟ قال: جهاد في سبيل الله. قيل: ثمَّ ماذا؟ قال: حجٌّ مبرور».

وجاء في رواية عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «من اتخذ محملاً للحجِّ كان كمن ارتبط فرساً في سبيل الله عزَّوجلَّ».[1]

* * *

١. صحيح البخاري كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور؛ ومن لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق ٢: ١٣٣، باب فضائل الحجّ.